

البصرة

تاريخها وثقافتها وتراثها

وقائع مؤتمر الاحتفال بافتتاح متحف البصرة،

٢٨-٢٩ سبتمبر ٢٠١٦

مُحرَّر

علي خضر

ترجمة

ناريمان يوسف وداليا عبد الحميد



البصرة

تاريخها وثقافتها وتراثها

وقائع مؤتمر الاحتفال بافتتاح متحف البصرة،
٢٨-٢٩ سبتمبر ٢٠١٦

مُحرَّر
علي خضر

ترجمة
ناريمان يوسف وداليا عبد الحميد

BASRA: ITS HISTORY, CULTURE AND HERITAGE
PROCEEDINGS OF THE CONFERENCE CELEBRATING THE OPENING OF THE BASRAH
MUSEUM, SEPTEMBER 28–29, 2016.

© BRITISH INSTITUTE FOR THE STUDY OF IRAQ 2021

ISBN 978-0-903472-37-1

Edited by Ali Khadr

Translated by Nariman Youssef & Dalia Abdelhameed

Typesetting and design by Stuart Brown

Printed in the United Kingdom by Henry Ling Limited, at the Dorset Press, Dorchester, DT1 1HD

فهرست

ج	الأشكال
خ	المساهمون
١	مقدمة
	إليانور روبسون
٧	١. أهوار العراق بين الماضي والحاضر فرانكو داغوستينو وليفيا رومانو
١٣	٢. من البصرة إلى كامبريدج ... ذهابًا وعودة نورست صباح وكلسي دافنبورت
٢٠	٣. احتياطي من الحرية: ملاحظات حول تصوير الزمن في الخرائط التاريخية ألكسي يانكوفسكي
٢٤	٤. قناة بلوكاتو والقطر البحري والإسكندر ستيفاني دالي
٣٠	٥. ما قبل البصرة: ميناء خاركس سياسينو ستيوارت كامبل، ستيفان هاوزر، روبرت كيليك، جين مون
٣٧	٦. أرض ميسان وما وراء البصرة في العصور القديمة المتأخرة سينجون سيمبسون
٥٣	٧. نشأة البصرة وتطورها الأول روبرت هويلاند
٥٨	٨. آثار البصرة المنتمية للعصر الإسلامي المبكر: تحديات وآفاق أندرو بيترسون وألستر نورثدج
٦٥	٩. التراث المسيحي للبصرة إريكا هنتر
٧٢	١٠. نشأة المتحف الجديد بالبصرة: تعاون عراقي-بريطاني جون كُرتيس

الأشكال

- الشكل ١ صورة لبعض المشاركين في ورش العمل عند مدخل متحف البصرة في يوم افتتاحه ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠١٦، برفقة اثنين من موظفي المتحف. (حقوق الصورة تعود لقحطان العبيد) من اليسار إلى اليمين، في المقدمة: فرانكو داغوستينو، روبرت كيليك، جوان مون، نيكولاس بوستجيت، روبرت هويلاند، إيلانور روبسون، قحطان العبيد، لمياء الكيلاني، جوان ماكأيفر، بول كولنر، أليكس بليم ٣
- الشكل ١.١ مواقع ذات أهمية ثقافية وبيئية في جنوب العراق. قائمة اليونسكو لمواقع التراث العالمي ٨
- الشكل ٢.١ يسارًا: عظم سمك وطبق من المبنى أ، غرفة ١، أبو طيرة. يمينًا: ما يسمى بمسقوف الأهوار ١٠
- الشكل ٣.١ يسارًا: منظر لحصيرة القصب في الغرفة ١، المبنى أ، أبو طيرة. يمينًا: تفصيلة من حصيرة قصب معاصرة ١٠
- الشكل ٤.١ يسارًا: بقايا حزمة القصب في الغرفة ١٤، المبنى أ، أبو طيرة. يمينًا: تفصيلة من حزمة قصب معاصرة ١١
- الشكل ٥.١ يسارًا: آثار حروق من الموقد. يمينًا: ثقب دعامة في حصيرة القصب في الغرفة ٩، أبو طيرة ١٢
- الشكل ١.٢ رسومات بالقلم الرصاص، من أعمال لكسي دافنبورت. حقوق الصورة محفوظة لكسي دافنبورت ١٤
- الشكل ٢.٢ خريطة ذهنية للخروج بمقاربة متعددة التخصصات لقراءة التاريخ الهولوسيني للسهل الرسوبي ١٧
- الشكل ١.٤ خريطة مبدئية لبابل توضح الخطوط والمواقع المقترحة لبعض القنوات والأنهار والمدن ٢٦
- الشكل ١.٥ لا تزال أسوار مدينة خاركس لا تزال موجودة بارتفاعات ملحوظة ٣١
- الشكل ٢.٥ التنقيب الجيوفيزيائي (إلى اليسار) وصورة من الطائرة المسيرة (إلى اليمين)، يقدمان وسائل تكاملية للكشف عن المباني المدفونة، ويظهر هنا مبنى ٢ ٣٢
- الشكل ٣.٥ صف من جرار تخزين مرصوص رأسًا على عقب على الأرض ٣٣
- الشكل ٤.٥ وعاء مطلي ثلاثي القوائم (ارتفاعه ١٤ سم) ٣٤
- الشكل ٥.٥ فص عقيق (قطره ٢٩ مم) ٣٥
- الشكل ٦.٥ بقايا حجر منقوش ٣٥
- الشكل ١.٦ المنارة في الزبير كما هي مُبَيَّنَة في بطاقة بريدية بريطانية من الحرب العالمية الأولى. استخدمت الصورة هنا بمعرفة مجلس أمناء المتحف البريطاني، BM EPH-ME. 1406 ٤٢

- الشكل ٢.٦ تمثال يصوّر المسيح في صفة «الراعي الصالح»، عُثر عليه في الزبير. استُخدمت الصورة هنا بمعرفة مجلس أمناء المتحف البريطاني، BM 1919,1213.1 = 114262 ٤٤
- الشكل ٣.٦ المواقع التقريبية لأسواق البصرة داخل وخارج الأسوار حسب المصادر المكتوبة الإسلامية الأولى. منقول عن Naji & Ali 1981 ٤٥
- الشكل ١.٨ منظر من الجو للمسجد الجامع في البصرة القديمة، التقطه سلاح الجو الملكي البريطاني بتاريخ ٣١ يوليو/تموز ١٩٣٥. Ref.SOP.GSR 5458. من الأرشيف الوطني البريطاني في كيو ٦٠
- الشكل ٢.٨ عواميد من الصخر الرملي، من عمليات تنقيب في سبعينيات القرن العشرين داخل المسجد الجامع (أبريل/نيسان ٢٠١٧) ٦٢
- الشكل ٣.٨ جدار مرّكب مع دعامات نصف دائرية تم كشفها في سبعينيات القرن العشرين (أبريل/نيسان ٢٠١٧) ٦٢
- الشكل ٤.٨ مطحنة يدوية مصنوعة من مادة زجاجية سوداء، عُثر عليها في قناة جافة تقع إلى الجنوب الشرقي من المسجد الجامع (أبريل/نيسان ٢٠١٧) ٦٣
- الشكل ١.٩ Pieter van der Aa, "Pays de Bassora", *Galérie agréable du Monde*, 1729 متاح في المجال العام: http://commons.wikimedia.org/wiki/File:Basra,_Gal%C3%A9rie_agr%C3%A9able_du_Monde.jpg ٦٩
- الشكل ١.١٠ متحف البصرة السابق المطل على خور عشار، تم التصوير في ٢٠١٣ ٧٣
- الشكل ٢.١٠ منظر أمامي لمتحف البصرة (سبتمبر/أيلول ٢٠١٦) ٧٤
- الشكل ٣.١٠ صورة لمتحف البصرة مع لافتات جديدة (فبراير/شباط ٢٠١٣) ٧٤
- الشكل ٤.١٠ منظر خلفي لمتحف البصرة من مجرى شط العرب المائي في ٢٠٠٨ ٧٤
- الشكل ٥.١٠ أعمال خشبية مزخرفة فوق الباب الأمامي لمتحف البصرة تحمل اسم صدام حسين وتاريخ ١٩٩٢ في أسفل اليمين (أبريل/نيسان ٢٠١٠) ٧٥
- الشكل ٦.١٠ نقش من الجص متعدد الألوان بقصر البحيرة ٧٦
- الشكل ٧.١٠ مجلس أمناء جمعية أصدقاء متحف البصرة والزملاء العراقيون في موقع المتحف في أبريل/نيسان ٢٠١٠. من اليسار: قاسم عبد الحميد البصري، د. لمياء الكيلاني، د. جون كرتيس، السيدة زهرة حمزة البجاري، فحامة السيدة أليس والبول، السير ترنس كلارك، قطان العبيد ٧٩
- الشكل ٨.١٠ مخطط المساحة الخاص بمتحف البصرة الجديد الذي أعده قطان العبيد في ٢٠١٠ ٨٠
- الشكل ٩.١٠ السير ترنس كلارك والدكتور قيس رشيد يوقعان مذكرة التفاهم في ١ ديسمبر/كانون أول ٢٠١٠ في المتحف البريطاني ٨١

المساهمون

د. ستيوارت كامبل: أستاذ في عصور ما قبل التاريخ في الشرق الأدنى في كلية الآداب واللغات والثقافات بجامعة مانشستر، درس في جامعة إدنبره. وهو مدير مشارك لمشروع حاركس سباسينو وتل خير، كما أدار أعمال التنقيب في شمال العراق وسوريا وتركيا.

د. بول كولنز: قيم على مجموعة Jaleh Hearn للشرق الأدنى القديم في متحف أشموليان بجامعة أكسفورد. ويشغل منذ عام ٢٠١٧ منصب الرئيس التطوعي لمجلس إدارة المعهد البريطاني لدراسة العراق.

د. جون كرتيس: شغل منصب أمين قسم الشرق الأوسط في المتحف البريطاني في الفترة ١٩٨٩-٢٠١١، وأمين المشروعات الخاصة من ٢٠١١ إلى ٢٠١٣، وأصبح منذ ٢٠١٤ الرئيس التنفيذي لمؤسسة التراث الإيراني. وهو رئيس المعهد البريطاني لدراسة العراق وشارك في تطوير متحف جديد بالبصرة منذ ٢٠٠٨. يشغل حاليًا منصب أمين سر جمعية أصدقاء البصرة الخيرية. تم انتخابه لزمالة الأكاديمية البريطانية في ٢٠٠٣ وقد منح رتبة الإمبراطورية البريطانية (OBE) في عام ٢٠٠٦ عن «خدماته للمتاحف».

د. فرانكو داغوستينو: أحد كبار باحثي الآشوريات في قسم الدراسات الشرقية بجامعة روما سابينزا والمدير المشارك لعمليات التنقيب في أبي طيرة ومدير عمليات التنقيب في إريبدو (أبو شهرين)، جنوب العراق.

كليسي دافنبورت: باحثة دكتوراه في مجال الفنون الجميلة، ومحاضرة مساعدة (في مجالات الفنون الزمكانية Time-based Media/مارسات التصوير متعدد الوسائط/الوسائط الرقمية الإبداعية)، وعضوة مجموعة LENS للأبحاث الصحفية والوثائقية، في كلية كامبريدج للفنون - جامعة أنجليا رسكين. تحاول كليسي من خلال أبحاثها استكشاف قدرة الفن على تشكيل المقاومة في عصرنا الحالي، ويتضمن ذلك بحث تجريبي- لا يزال جاريًا- حول تقاطع الجيولوجيا مع الفن، وذلك بالشراكة مع عالمة الرسوبيات، نورست صباح عبد الوهاب، في البصرة.

ستيفان هاووزر: أستاذ آثار ثقافات البحر المتوسط القديمة وعلاقتها بالشرق الأدنى القديم ومصر في جامعة كونستانس (ألمانيا). وهو مؤلف الكتاب التالي: *Status, Tod und Ritual. Stadt- und Sozialstruktur Assurs in neuassyrischer Zeit* (٢٠١٢). ويدير حاليًا مشاريع حول ممارسات الدفن وفن البورتريه في تدمر، وكذلك عن الدين والهوية في بلاد الرافدين إبان العصر الهلنستي.

روبرت هويلاند: أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بمعهد دراسات العالم القديم بجامعة نيويورك. وله العديد من المؤلفات حول التاريخ الثقافي والمادي للشرق الأوسط خلال العصور القديمة المتأخرة والعصر الإسلامي المبكر، تتضمن هذه المؤلفات: *Seeing Islam as Others Saw it* (١٩٩٧)، *Arabia and the Arabs* (٢٠٠١)، *In God's Path: The Arab Conquests and the First Islamic Empire* (٢٠١٥). كما قام بإجراء مشاريع تنقيب أثرية في اليمن وسوريا وتركيا وأذربيجان.

د. إريكا هنتر: محاضرة أولى في المسيحية الشرقية، بقسم التاريخ والأديان والفلسفات، كلية الدراسات الشرقية والإفريقية، جامعة لندن SOAS. وهي رئيس مشارك لمركز العالم المسيحي، بالكلية ذاتها، جامعة

لندن، ويركز المركز على المجتمعات المسيحية في الشرق الأوسط، مع اهتمام خاص بتراث المسيحية في العراق وسوريا. ومنذ ٢٠٠٤ حتى ٢٠١٣ نظمت هنتر ندوة اليوم الواحد السنوية عن «المسيحية في العراق»، وهي محررة الكتاب التالي: *The Christian Heritage of Iraq: collected papers from the Christianity in Iraq I-V Seminar Days* (٢٠٠٩).

الكسي يانكوفسكي: تخرج من كلية التاريخ، جامعة لينينغراد في عام ١٩٩٠. بين عامي ١٩٨٦ و ٢٠١٨ عمل كباحث ومحرر وصانع أفلام وثائقية في فرنسا وألمانيا وهولندا والعراق. يتولى منذ عام ٢٠٠٧ قيادة مشروع «الزمن على الخريطة» (*Time on Maps*)، ويقوم بدراسة الجغرافيا التاريخية في جنوب بلاد الرافدين وينسق المشاريع بين معهد الآثار التابع لأكاديمية العلوم الروسية والهيئة العامة العراقية للآثار والتراث.

د. جاين مون ود. روبرت كيليك: تعاونوا في إدارة مشاريع تنقيب كبرى في تل خيبر بالقرب من أور، وفي سار القديمة في البحرين قبل البدء في مشروع خاركتس سباسينو. درسوا في جامعتي كامبريدج وبرمنجهام، وشغلا مناصب في قاعدة المعهد البريطاني لدراسة العراق ببغداد، كما عملا في عدة مشاريع ميدانية في العراق. جاين هي زميلة أبحاث شرفية في جامعة لودويج ماكسيميليان في ميونيخ.

ألستر نورثدج: أستاذ فخري للفن الإسلامي والآثار بجامعة باريس (بانتيون سوربون). عمل في سوريا والأردن والمملكة العربية السعودية وكازاخستان وتركمانستان، وأدار مشاريع في عمان بالأردن وعانة بالعراق، بالإضافة إلى سامراء. وهو مؤلف كتاب *Studies on Roman and Islamic Amman*، وشارك في تأليف *Excavations at Ana*، ونشر *Historical Topography of Samarra* في ٢٠١٥. المجلد الثاني من مشروع سامراء *Archaeological Atlas of Samarra*، نُشر أيضًا في ٢٠١٥. وعمل نورثدج بعد ذلك على مدينة دهستان خلال العصور الوسطى في تركمانستان. ويعمل حاليًا - بعد تقاعده في ٢٠١٧ - في الموقع الآثاري للبصرة القديمة في الزبير.

إليانور روبسون: أستاذة تاريخ الشرق الأوسط القديم بكلية لندن الجامعية. كانت الرئيسة التطوعية لمجلس إدارة المعهد البريطاني لدراسة العراق من ٢٠١٢ حتى ٢٠١٧، وشاركت في تنظيم ورشة متحف البصرة مع قحطان العبيد وبول كولينز. وتشارك الآن - مع كولينز وأنور عنيد (جامعة كردستان) - في إدارة شبكة نهري (٢٠١٧-٢٠٢١)، وهي مشروع بحثي نتج عن ورشة العمل، بتمويل من صندوق أبحاث التحديات العالمية ومجلس بحوث الآداب والعلوم الإنسانية (AHRC-GCRF).

د. ليشيا رومانو: زميلة باحثة في آثار الشرق الأدنى القديم في قسم الدراسات الشرقية، بجامعة روما سابينزا، والمديرة المشاركة لعمليات التنقيب في أبو طيرة، جنوب العراق.

د. سينجون سيمبسون: عالم آثار وأحد كبار قِيمي المتحف البريطاني حيث يشغل أيضًا منصب نائب مدير برنامج التدريب على إدارة التراث في حالات الطوارئ في العراق. وهو متخصص في الثقافة المادية الساسانية وقام بالتنقيب على نطاق واسع في العراق وتركمانستان وأماكن أخرى. ألف العديد من المنشورات العلمية والكتب والكتالوجات والمعارض وكان القيم على جاليري رحيم إيرفاني لإيران القديمة (٢٠٠٧) وثلاثة معارض كبرى نذكرها هنا: *Afghanistan: Crossroads of the Ancient World* (٢٠١١)، *Queen of Sheba: Treasures from ancient Yemen* (٢٠٠٢)، *Scythians: Warriors of ancient Siberia* (١٨/٢٠١٧).

مقدمة

إليانور روبسون

تعتبر مدينة البصرة العريقة والتي أنشئت عام ٦٥٣ ميلادياً (١٤ هجرياً) مدينة حديثة نسبياً، مقارنةً بغيرها في العراق التي تمتد تاريخها لأكثر من خمسة آلاف عام وعرفت الحياة البشرية منذ عشرات آلاف السنين ما قبل التاريخ. إلا أنه عندما وصل المستوطنون البصرة خلال عقود الإسلام الأولى، لم يكونوا - بأية حال - أول من وجد هذا المكان صالحاً للعيش، فدن الميناء الكبيرة وُجدت هنا لمدة ألف سنة على الأقل، بينما الأهوار في الشمال كانت موطناً لمجتمعات متنوعة ومزدهرة منذ زمن السومريين. تتبع الأوراق المحررة في هذا الكتاب بعض وتأثر الاستمرارية والانقطاع في سيرة الحيات القديمة وما قبل الحديثة في منطقة البصرة وما حولها، من جوانب البيئة الطبيعية والدين واللغة والثقافة المادية.

يبرهن كل من فرانكو داغوستينو وليشيا رومانو - في مقالهما الافتتاحي في الفصل الأول - على وجود استمراريات ملموسة في أنماط حياة سكان الأهوار على مدار ٤٥٠٠ عامًا. فالموقع الأثري لأبي طيرة، القريب من مدينة الناصرية حاليًا، يمثّل بقايا قرية مساحتها ٤ هكتارًا كانت عامرة في الفترة ما بين عام ٢٥٠٠ وعام ٢١٠٠ قبل الميلاد، وكانت تمثّل في ذلك الوقت قلب الأهوار الواقع على رأس الخليج. ولذلك، كان القصب واحدًا من أكثر المواد توافرًا وأوسعها استخدامًا سواء كإداة للبناء أو داخل المنازل، ويتوافق ذلك مع عودة ازدهار عمارة المضيف (بيوت القصب) التقليدية اليوم. لا يتوقف الأمر عند هذا الحد، إذ أظهر داغوستينو ورومانو، من خلال المقارنة مع الصور الإثنوغرافية التي التُقطت في الستينيات والسبعينيات، أن الطريقة المحددة التي وُزعت بها القطع المصنوعة من القصب حول المنازل ظلت ثابتة بشكل استثنائي على مدار ألفين وخمسمائة عام. كان هذا الدليل حجة رئيسية في الطلب الناجح الذي تم تقديمه لضم المواقع الأركيولوجية في منطقة الأهوار العراقية ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو في عام ٢٠١٦.

وإذا أوغلنا النظر فيما هو أقدم، فس نجد نورست صباح وكلسي دافنبورت - في الفصل الثاني - تحكيان قصة مجموعة من العينات الجيولوجية التي تكونت في حقل الزبير النفطي شمال البصرة في الستينيات، وهي محفوظة الآن في متحف سدجويك لعلوم الأرض في كامبريدج. هما في الواقع ترويان ثلاثة قصص من خلال قصة واحدة: التكوين الجيولوجي التدريجي للأراضي والمجاري المائية حول البصرة وما صحب ذلك من تغييرات في البيئات النباتية والحيوانية على مدار ٨٠٠٠ سنة؛ والتفسيرات العلمية الناشئة عن تلك الأدلة على مدار نصف القرن الماضي؛ والتعاون بين المؤلفتين لخلق معرفة علمية وفنية جديدة من خلال هذه العينات.

يستكشف ألكسي يانكوفسكي في الفصل الثالث دور الأهوار - ما يعرف باسم *māt tāmti* في الأكادية القديمة أو القطر البحر - ودور المجاري المائية في تكوين البنى المجتمعية في المنطقة. ويستلهم يانكوفسكي

بعض الأفكار من أبحاث عالم الآثار العراقي عبد الأمير الحمداني ليصف مشروعاً قيد التنفيذ، وهو مشروع رسم خرائط تصوّر بصرياً التحوّلات في مجاري المياه والمستوطنات البشرية في الأهوار عبر آلاف السنين، ويهدف إلى تحديد الفترات الزمنية الحرجة التي تراكمت فيها تغيّرات صغيرة ذات النطاق المحدود، سواءً ما كانت في البيئة أو الحياة الاجتماعية والسياسية، بما يكفي لإحداث تغيير كارثي في مواطن البشر واستغلال الموارد الطبيعية. ومن خلال مقارنات مع بيئات طبيعية مشابهة من مختلف أنحاء العالم، يسوق يانكوفسكي حججاً مقنعة حول المزايا التي توفرها الأهوار من حيث السرية والفرص التجارية.

ويأتي أحد هذه المجاري المائية التابعة للقطر البحري، والذي مثّل قناة اتصال يُعوّل عليها بين بابل والخليج في العصور القديمة، كموضوع للبحث عند ستيفاني دالي في الفصل الرابع. تبحث دالي في الأدلة النصّية للحياة الطويلة لقناة بلوكاتو أو فلوقات الواقعة غرب بابل، منذ حوالي أوائل الألفية الثانية قبل الميلاد وحتى عصر الإسكندر. كما تطرح دالي فرضية مفادها أن مدينة الإسكندر الجديدة في الأهوار (الإسكندرية على نهر دجلة) كانت بمثابة إعادة تأسيس لمدينة القطر البحري: دور إنليل أو دورينة، والتي كانت مدينة هامة منذ منتصف الألفية الثانية وحتى العهد الأخميني، (حوالي ١٥٠٠ إلى ٥٠٠ قبل الميلاد). ويكتب ستيفارت كامبل وزملاؤه في الفصل الخامس عن عمليات التنقيب الأخيرة التي قاموا بها في نفس مدينة الميناء السالف ذكرها، وتجسّداتها المختلفة منذ العهد السلوقي وحتى العهد الساساني المتأخر، منذ حوالي ٣٣٠ إلى ٦٠٠ ميلادياً. وقد كشفت صور الأقمار الصناعية والمسح السطحي والتحليل الجيوفيزيائي عن الحدود الرئيسية لمدينة داخل سورها الحصين. فيما كشفت طرق التنقيب التقليدية عن وجود سلع وكماليات تشير إلى الدور الرئيسي الذي لعبته مدينة خاركس سباسينو في التجارة بين الخليج والمحيط الهندي منذ حوالي ألفي عام، عندما كانت عاصمة مملكة الأهوار ميسان.

أما في الفصل السادس فيتناول سينجون سيمبسون قصة جنوب العراق تحت الحكم الساساني في العصور القديمة المتأخرة. وتحديدًا المنطقة التي كانت تعرف باسم أرض ميسان تحت الحكم الساساني، والمدينة التي كانت تعرف سابقاً باسم الإسكندرية ولاحقاً باسم خاركس والتي سميت فيما بعد باسم مؤسس الأسرة المالكة آنذاك أستراباد أردشير. وفي حين استمرت المعتقدات البابلية القديمة في بعض القرى المجاورة، اعتنقت أعداد كبيرة من سكان المدينة نفسها الديانة المسيحية، وكان هناك أيضاً مجموعات سكنية من وادي السند وحتى من سومطرة. لكن في هذا الوقت لم تكن هذه المدينة سوى مركزاً واحداً من عدة مراكز حضرية كبيرة. فكما يوضح سيمبسون، هناك العديد من الأدلة على التجارة الساسانية مع المحيط الهندي الغربي، وعبر سريلانكا، إلى الشرق. وبحلول ذلك الوقت، كانت التجارة البحرية قد انتقلت إلى ميناء الأبلّة غير المنقب عنه بعد - قد يكون هو نفسه ميناء أبولوجوس القديم - جنوب نهر دجلة، ذلك أن تحوّل المجاري المائية وترسيب الأهوار وتغيّر مستوى سطح البحر في الخليج خلفوا المدينة السابقة شاملاً في حالة جفاف.

في الفصلين السابع والثامن، يناقش روبرت هويلاند، وأندرو بيترسون وألستر نورثدج، على التوالي، الأدلة التاريخية والأركيولوجية لحياة الأجيال الأولى من المسلمين في البصرة، في الموقع الذي يُعرف الآن باسم الزبير على بعد بضعة كيلومترات جنوب غرب الأبلّة. وتُخبرنا مصادر هويلاند التي تعود إلى القرون الوسطى، أن اختيار هذا الموقع يعود إلى تربته الحجرية المثقلة بالجص أو الكذبان - وهو «البصرة» - والتي وفرت أسساً صلبة ومواداً وفيرة لبناء الحامية العسكرية الجديدة. وعلى الرغم

أنه من الصعب توفير الأوصاف المعاصرة للمسجد الأول ودار الإمارة المجاورة له مع الأدلة المستمدة من عمليات المسح والتنقيب الحديثة التي أجرتها الفرق العراقية في السبعينيات والثمانينيات، إلا أن المشروع العراقي البريطاني الجديد، والذي بدأ للتو في الزبير، سيظهر تفسيرات تاريخية وأركيولوجية جديدة. كما سيقدم خطة ناجحة لإدارة هذا الموقع الهش رغم أهميته الحيوية، والذي يتعرض بشكل متزايد للجور من المدينة الحديثة.

تقدم إريكا هنتر في الفصل التاسع لمحة عامة عن التراث المسيحي الغني والمتنوع في البصرة، وعن المجتمعات المسيحية النشطة في البصرة اليوم.

بدأت هذه المجموعة من الأوراق كسلسلة من المحاضرات أقيمت في المعهد البريطاني لدراسة العراق خلال ورشة العمل الدولية التي عقدت في البصرة يومي ٢٨ و ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١٦، للاحتفال بافتتاح متحف البصرة الذي طال انتظاره (الشكل ١). وكما وضع جون كرتيس بمزيد من التفصيل في الفصل العاشر، فإن الاستعدادات على مدار العقد الماضي كانت معقدة ودقيقة. وبالنسبة لمدير المتحف، السيد قحطان العبيد، كان الافتتاح بمثابة تنويع لما يقرب من عقد كامل من التخطيط، وتنمية الموارد المالية، والتفاوض المباشر والإبداع. فنذ عام ٢٠٠٨، عمل السيد قحطان العبيد مع الهيئة العامة للآثار



الشكل ١. صورة لبعض المشاركين في ورش العمل عند مدخل متحف البصرة في يوم افتتاحه ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠١٦، برفقة اثنين من موظفي المتحف. (حقوق الصورة تعود لقحطان العبيد) من اليسار إلى اليمين، في المقدمة: فرانكو داغوستينو، روبرت كيليك، جوان مون، نيكولاس بوستجيت، روبرت هويلاند، إيلانور روبسون، قحطان العبيد، لمياء الكيلاني، جوان ماكيفر، بول كوليز، أليكس بليم

والتراث بالعراق، والجيش البريطاني والمتحف البريطاني، ولاحقاً مع جمعية أصدقاء متحف البصرة والمعهد البريطاني لدراسة العراق (وهما جمعيتين خيريتين في بريطانيا)، لتحويل أحد قصور صدام السابقة المتهاكة إلى مساحة عرض متطورة لعرض الآثار العراقية.

بدأ مشروع المتحف الجديد إبان الاحتلال البريطاني للبصرة بعد حرب عام ٢٠٠٣. المتحف القديم، الذي كان يوماً فيلا عثمانية أنيقة في قلب المدينة القديمة، كان لم يعد مناسباً لهذا الغرض، إلا أنه قد تم تجديده منذ ذلك الحين ليصبح مقرّاً لمكاتب خدمة الآثار المحلية. فوافق الجيش البريطاني، كجزء من خطة انسحابه، على تسليم أحد المباني التي كان يحتلها آنذاك ليصبح مقر المتحف الجديد - وهو عبارة عن جناح استقبال من ثلاث قاعات تم بناؤه لصدام حسين على الواجهة البحرية لشط العرب. أتاح هذا القرار الفرصة للقيام بمراجعة شاملة ودقيقة لمحتوى وأهداف وشخصية المتحف. والأهم من ذلك هو قيام السيد قحطان العبيد بتطبيق نموذج جديد لإدارة المتاحف في العراق والمنطقة. فجمعية أصدقاء متحف البصرة تعمل كمجلس أمناء، دوره هو جذب الرعاة من القطاعين العام والخاص لتوفير واجهات عرض، وأنظمة أمان عالية الجودة، وأنظمة تحكم في المناخ بالمتحف. كما يحظى المتحف كذلك بوجود مجموعة كبيرة من الداعمين والمتطوعين المحليين القائمين على خدمته، والتواقين لتقديم المساعدة من أجل إنجاح المشروع وخدمة المجتمع المحلي وكذلك تعلم المزيد عن التاريخ والآثار.

عادة ما تحكي جميع متاحف المحافظات العراقية نفس القصة الوطنية، من خلال عرض مجموعات من القطع الأثرية ماثلة لتلك الموجودة بالمتحف العراقي ببغداد. إلا أن متحف البصرة يُعدّ الأول من نوعه في تقديم التاريخ المحلي لمحافظة البصرة وما سبقها فيما يتعلق بالأهوار والخليج، وكذلك الثقافات العظيمة في العصور القديمة العراقية، سومر وابل وآشور، الذين سيطروا على المنطقة منذ الألفية الرابعة وحتى الألفية الأولى قبل الميلاد، عندما كانت منطقة البصرة لا تزال مغمورة تحت المياه. المتحف عبارة عن قاعة مهيبة، جدرانها مطلية بلون بنفسجي - بني غامق، يعلوها سقف مزين بالطراز الإسلامي الكلاسيكي، وتُعرض فيها قطع أثرية من البصرة وضواحيها المجاورة. تشمل أقدم المعروضات فخار و عملات معدنية مستخرجة حديثاً من خاركس سباسينو (انظر الفصل الخامس). أما القطع المعروضة من حقبة البصرة الإسلامية المبكرة (الفصلين السابع والثامن) فتشمل نقوشاً حجرية أنيقة وزخارف جصية من المسجد ودار الإمارة. بالإضافة إلى ذلك، فإن الفترة العثمانية، وهي فترة ثراء تجاري عظيم، ممثلة تمثيلاً جيداً في المتحف من خلال معروضات فاخرة مثل زجاجات العطور وجرار البخور.

يفخر المعهد البريطاني لدراسة العراق (BISI) بمشاركته في تطوير متحف البصرة منذ المراحل الأولى، وذلك من خلال تقديم الدعم للعديد من زيارات السيد قحطان العبيد التخطيطية إلى المملكة المتحدة. وفي ٢٠١٣ وافق المعهد على إضافة ورشة عمل إلى حفل الافتتاح الرسمي، وبدأ التخطيط لها بشكل جدي في أوائل ٢٠١٦، ما إن تم تحديد موعد الافتتاح. وضم فريق إعداد ورشة العمل كل من: قحطان العبيد، لمياء الكيلاني، بول كولينز، جون كرتيس، إيلانور رويسون، بدعم من مدير المعهد علي خضر ومنسقة ورشة العمل المتطوعة آجنس هنريكسن. وكان برنامج ورشة العمل كالتالي، مع وجود ترجمة فورية قام بها أمير دوشي من اتحاد الأدباء والكتاب في ذي قار:

١ لمزيد من المعلومات انظر النشرات الإخبارية الصادرة عن المعهد البريطاني لدراسة العراق. ٢٣ (في أيار/مايو ٢٠٠٩)، ٢٦: ٢٥ (في أيار/مايو ٢٠١٠) ٥: ٤٢ (في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٤) ٢٠، نسخ النشرة متاحة للتحميل من خلال الرابط التالي <http://www.bisi.ac.uk/content/newsletter> (تم الدخول على الرابط في تاريخ ١٤٠٨/٢٠١٨).

البصرة: تاريخها وثقافتها وتراثها مؤتمر احتفالي بمناسبة افتتاح متحف البصرة

الأربعاء ٢٨ أيلول/سبتمبر

إليانور روبسون (رئيسة مجلس إدارة المعهد البريطاني لدراسة العراق BISI) وقيس حسين رشيد (مدير الهيئة العامة للآثار والتراث بالعراق): مقدمة وترحيب

الجلسة الأولى (رئيس الجلسة: نيكولاس بوستجيت)

جاين مون وروبرت كيليك (جامعة مانشستر): خاركس سباسينو، مدينة الإسكندر الأكبر
* عادل هاشم (جامعة البصرة): المجاري المائية في جنوب السهل الرسوبي وخاركس
ستيفاني دالي (جامعة أكسفورد): قناة بلوكاتو والقطر البحري والإسكندر
ألكسي يانكوفسكي (مؤسسة الإسكندر): «الزمن على الخريطة» في جنوب العراق

الجلسة الثانية (رئيس الجلسة: عبد الأمير الحمداني)

سينجون سيمبسون (المتحف البريطاني): أرض ما وراء البصرة في العصور القديمة المتأخرة
روبرت هويلاند (جامعة نيويورك): نشأة البصرة ومستوطناتها الأولى
إريكا هنتر (كلية الدراسات الشرقية والإفريقية، جامعة لندن SOAS): التراث المسيحي للبصرة
فرانكو داغوستينو (جامعة لا سابينزا): أبو طيبة والأهوار
المساء: زيارة إلى مدينة البصرة القديمة

الخميس ٢٩ أيلول/سبتمبر

الجلسة الثالثة (رئيسة الجلسة: إليانور روبسون)

أندرو بيترسون (جامعة ويلز): الأركيولوجيا الإسلامية في منطقة البصرة: تحديات وآفاق
* جعفر درويش (الهيئة العامة للآثار والتراث بالعراق): دور المنظمات غير الحكومية في حماية التراث الثقافي
* بنان العيادة (جامعة البصرة): تاريخ البصرة من خلال الصور
جون كرتيس وقحطان العبيد (جمعية أصدقاء متحف البصرة ومتحف البصرة): نشأة المتحف الجديد
بالبصرة: تعاون عراقي بريطاني
أسئلة ومناقشة

الجلسة الرابعة (رئيسة الجلسة: جوان ماكايفر)

* أليكس بليم (جامعة دَرَم): العمل الميداني اللغوي حول عربية جنوب العراق
نورست صباح عبد الوهاب (جامعة البصرة/جامعة أنجليا رَسكين): من البصرة إلى كامبريدج ذهاباً وعودة
* مي شاعر (اليونسكو): اليونسكو والأهوار
أسئلة وملاحظات ختامية
ترنيات على العود
مساءً: رحلة بالقارب في شط العرب

الجمعة ٣٠ أيلول/سبتمبر

رحلة ليوم واحد إلى الجبايش والأهوار، شكر واجب إلى د. جاسم الأسعدي ومنظمة طبيعة العراق

لم يقدم المتحدثون الذين سبقت أسماؤهم علامة النجمة (*) فصولاً إلى هذا الكتاب. لذا نقدم هنا ملخصات موجزة لمحاضراتهم. وصفت د. مي شاعر تفصيلاً علاقة اليونسكو بالأهوار الجنوبية كموقع للتراث العالمي، مما عَصَد الاستعراض العام الذي قدماه داغوستينو ورومانو في الفصل الأول.^٢ فيما جاءت ورقة د. عادل هاشم، حول المجاري المائية في السهل الرسوبي وخاركس مكملة للآخرين في الجلسة الأولى (الفصول الثالث والرابع والخامس) من خلال مقارنة التوصيفات اليونانية الكلاسيكية للمنطقة في زمن الإسكندر الأكبر بالأدلة الأركيولوجية لتحديد العلاقة بين المستوطنات والممرات المائية في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد. قدمت السيدة بنان العيادة عرضاً خلافاً لصور البصرة القديمة، أعادت من خلالها بث الحياة في العهد العثماني المتأخر وعهد الانتداب.^٣ وقدم د. أليكس بليم لمحة عامة عن التنوع الفائق للهجات العربية العراقية وأجرى بحثاً ميدانياً مباشراً مع الحضور، مما أشاع البهجة بينهم.

لم تكن ورشة عمل متحف البصرة فقط تكليلاً لعملية طويلة من التخطيط. ولكنها كانت أيضاً التربة الحاضنة للعديد من المبادرات اللاحقة. ففي كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٦، أخطر كل من مشروع خاركرس سباسينو (الفصل الخامس) وجمعية أصدقاء متحف البصرة (الفصل العاشر) بتلقيهما تمويلاً كبيراً من صندوق الحماية الثقافية التابع للمجلس الثقافي البريطاني لمواصلة ومدّ نطاق عملهما لمدة ثلاث سنوات أخرى.^٤ وتلقى مشروع البصرة القديمة (الفصل الثامن) منحة المشروع التجريبي المقدمة من المعهد البريطاني لدراسة العراق في عام ٢٠١٧، كما مُنحت د. نورست صباح (الفصل الثاني) منحة BISI-Dangoor للأكاديمي العراقي الزائر لتعزيز تعاونها مع د. كليسي دافنبورت في كامبريدج. وأخيراً، أدت المحادثات التي جرت في ورشة العمل بين المنظمين بول كولينز وإليانور روبسون من ناحية ومديرة مكتب اليونسكو في العراق لوز هاكستهاوزن من ناحية أخرى، إلى تعاون واسع النطاق ممتد لأربعة سنوات لتعزيز التنمية المستدامة للتراث الثقافي والتاريخ والعلوم الإنسانية في العراق وجيرانها. شبكة نهري، التي يمولها مجلس أبحاث الفنون والعلوم الإنسانية في المملكة المتحدة وصندوق أبحاث التحديات العالمية، لها مقار بكلية لندن الجامعية، وبجامعة كردستان، وبتحف أشموليان بجامعة أكسفورد، مع عدد من الشركاء الدوليين بما في ذلك المعهد البريطاني لدراسة العراق ومكتب اليونسكو بالعراق وأصدقاء متحف البصرة. وهم معاً يقدمون أنواعاً من الدعم العملي والمالي للأبحاث متعددة التخصصات، لتمكين الجامعات والمتاحف والمبادرات المحلية من تلبية احتياجاتها خلال مرحلة ما بعد النزاع. وستعمل هذه المساعي الجديدة - فيما بينها - على زيادة معرفتنا الجماعية بتاريخ البصرة وتراثها وثقافتها، كما ستعيننا على تسخير تلك المعرفة في سبيل التنمية الاجتماعي والاقتصادي للمنطقة خلال السنوات والعقود القادمة.

مراجع

بسام العلوي، ٢٠١٥. تراث الديانات، البصرة: المجموعة الدولية لحقوق الأقليات والهيئة العامة للآثار والتراث في العراق.

قحطان العبيد، ٢٠١٦. البصرة صور من الماضي: الهيئة العامة للآثار والتراث في العراق.

٢ للإطلاع على التوثيق الرسمي، انظر: <http://whc.unesco.org/en/list/1481>.

٣ انظر العبيد (٢٠١٦).

٤ انظر الرابطين:

<http://www.britishcouncil.org/arts/culture-development/cultural-protection-fund/projects/ground-survey>

<http://www.britishcouncil.org/arts/culture-development/cultural-protection-fund/projects/basrah-museum>

الفصل الأول

أهوار العراق بين الماضي والحاضر

فرانكو داغوستينو وليشيا رومانو^١

(١) في ١٧ تموز/يوليو ٢٠١٦، وافق اليونسكو في جلسة مكتملة عُقدت في إسطنبول على إضافة أهوار جنوب العراق وثلاث مدن سومرية مرتبطة بها تاريخيًا وثقافيًا إلى لأحة التراث العالمي، والمدن هي أور وإريكو والوركاء (الشكل ١.١؛ الجدول ١.١ في الصفحة التالية). عنوان الملف هو «أهوار جنوب العراق: ملجأ التنوع البيولوجي وآثار مدن ما بين النهرين»، وكايوحي العنوان فهي بيئة تمتاز فيها الطبيعي بالتاريخ الثقافي. وقد كان لمؤلفي هذه الورقة شرف المشاركة في كتابة الملف الثقافي كجزء من اللجنة العراقية الدولية التي أنشأت خصيصًا لدعم تجميع الحافظة التاريخية، بتنسيق من المركز الإقليمي العربي للتراث العالمي في المنامة (البحرين).

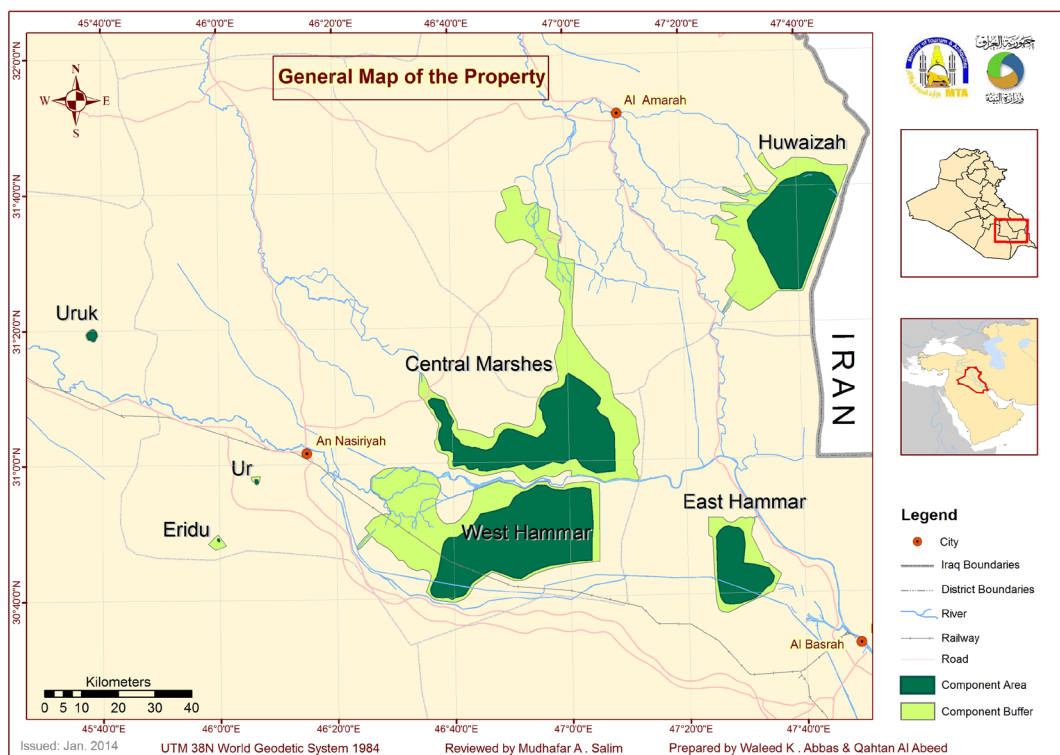
وبالفعل فإن لأحة اليونسكو تضم، بالإضافة إلى المواقع الثقافية أو البيئية، قائمة من اثنين وثلاثين موقعًا «مختلطًا» (وهو ما يشكل أقل من عشرة بالمائة من اللاحة الكاملة) تركز بالتساوي على التاريخ الثقافي والتاريخ للمنطقة المختارة من ناحية والخصائص الطبيعية والبيئية من ناحية أخرى. وكانت لأحة اليونسكو تتضمن موقعين فقط في هذه الفئة من العالم العربي، وهما طاسيلي ناجر في الجزائر ووادي رم، محمية في الأردن. والآن أصبحت أهوار جنوب العراق الموقع الثالث في هذه القائمة. ومن الواجب إيضاح أن الاعتراف بتراثية أي نظام ثقافي وبيئي تحت حماية اليونسكو يستلزم إثبات ارتباط حضارة سابقة، تركت لنا آثارًا أركيولوجية، بخصوصية البيئة واستحالة تطورها وازدهارها في بيئة مختلفة.

وجاءت دوافع اللجنة على النحو التالي:

تتكون الأهوار من سبعة مكونات: ثلاثة مواقع أثرية وأربع مناطق من المستنقعات الرطبة في جنوب العراق. وتشكل المدن الأثرية الوركاء وأور وتل إريكو (تل أبو شهرين) جزءًا من بقايا المدن والمستوطنات السومرية التي نشأت في جنوب بلاد ما بين النهرين بين الألفية الرابعة والثالثة قبل الميلاد في دلتا نهري دجلة والفرات. وتعتبر أهوار جنوب العراق - المعروفة أيضًا بأهوار العراق - فريدة في كونها واحدة من أكبر شبكات الدلتا البرية (البعيدة عن البحر) في العالم، في بيئة محيطة تتميز بالجفاف وشدة الحرارة.

يعود ربط الخواص الطبيعية بالخواص الثقافية والتاريخية في الملف نفسه إلى اعتبارات تتعلق بترام وتراجع شواطئ نهري دجلة والفرات عبر آلاف السنين. وقد أبرز نهج جديد في الجغرافيا القديمة

١ تم قراءة نسخة من هذا النص في المؤتمر في البصرة. الجزء (١) والملاحظة ٤ بقلم فرانكو داغوستينو، والجزء (٢) بقلم ليشيا رومانو.



الشكل ١.١. مواقع ذات أهمية ثقافية وبيئية في جنوب العراق. قائمة اليونسكو لمواقع التراث العالم.

الاسم والموقع	إحداثيات	منطقة
الجانب العراقي من هور الحويزة	شمال ٣١ ٣٣ ٤٤	المباني والهياكل: ٤٨١٣١ هكتار
	شرق ٤٧ ٣٩ ٢٨	المنطقة العازلة: ٤٢٥٦١ هكتار
الأهوار المركزية	شمال ٣١ ٧٥	المباني والهياكل: ٦٢٤٣٥ هكتار
	شرق ٤٧ ٣ ١٥	المنطقة العازلة: ٨٣٩٥٨ هكتار
شرق هور الحمار	شمال ٣٠ ٤٤ ٢١	المباني والهياكل: ٢٠٣٤٢ هكتار
	شرق ٤٧ ٢٦ ١٩	المنطقة العازلة: ١٢٧٢١ هكتار
غرب هور الحمار	شمال ٣٠ ٥٠ ٣٠	المباني والهياكل: ٧٩٩٩١ هكتار
	شرق ٤٦ ٤١ ٣	المنطقة العازلة: ٦٨٤٠٣ هكتار
مدينة الوركاء الأثرية	شمال ٣١ ١٩ ٢٧	المباني والهياكل: ٥٤١ هكتار
	شرق ٤٥ ٣٨ ١٤	المنطقة العازلة: ٢٩٢ هكتار
مدينة أور الأثرية	شمال ٣٠ ٥٧ ٤٧	المباني والهياكل: ٧١ هكتار
	شرق ٤٦ ٦ ١١	المنطقة العازلة: ٣١٧ هكتار
موقع تل إريدو الأثري	شمال ٣٠ ٤٩ ١	المباني والهياكل: ٣٣ هكتار
	شرق ٤٥ ٥٩ ٤٥	المنطقة العازلة: ١٠٦٩ هكتار

الجدول ١.١. الملف البيئي والثقافي بالتفصيل.

(الباليوجغرافيا) لجنوب بلاد ما بين النهرين، أساسه دراسة صور الأقمار الصناعية (خاصة صور كورونا التي التقطت في الستينيات)، الأهمية الاستثنائية البيئة والدلتاوية والساحلية وأنماط الاقتصاد المرتبطة بهما في تطور وتنظيم الحياة في المنطقة. وكما تقول جينيفر بورنيل (Pournelle 2003: 5) فإن التحليل الهيدروجيولوجي من خلال صور الأقمار الصناعية يقدم الآتي:

منهجية تفسيرية ملائمة بشكل خاص لدراسة المجالات التفاعلية على المستوى الإقليمي التي يتعذر الوصول إليها من خلال التنقيب في موقع واحد، ولإنشاء فرضية تؤكد على دور الطبيعة الأساسية، ليس فقط لمياه بل أيضًا على مناطق التحول البيئي الساحلية، في تشكيل ودعم المؤسسات الاجتماعية المركبة التي صاغت أسس للتحضر في جنوب بلاد ما بين النهرين.

ومن الواضح أيضًا استمرار ذلك الوضع لفترة أطول مما افترض سابقًا، وأن البيئة الساحلية شكّلت الخواص الأساسية لطبيعة جنوب بلاد ما بين النهرين على الأقل حتى نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد.

بعبارة أخرى، فعلى الرغم من الموضع الجغرافي للمواقع الأثرية الثلاثة اليوم، بعيدًا عن مركز الجزء البيئي من الطلب/الالتباس، لم يكن من الصعب إظهار العلاقة الهيدروجيولوجية القديمة بين هذه المدن والدلتا والبيئة الساحلية. (٢) ومن أهم الأدلة الأركيولوجية، فإن الموانئ الغربية والشمالية في أور تُظهر بوضوح علاقة المدينة بالبيئة المائية (الدلتاوية) المحيطة بها. ويمكن بطبيعة الحال الاستدلال بشواهد مشابهة في الوركاء وخصوصًا إريدو.

كان الجانب الأهم والأكثر تعقيدًا هو الحاجة للتدليل من خلال البيانات الأركيولوجية من أور وإريدو والوركاء على علاقاتهم الثقافية مع البيئة البيولوجية للأهوار، وهو ما يشير إليه الاقتباس أعلاه. في الواقع، تركز الحجة المركزية للالتباس العراقي على استمرارية ثقافية ممثلة في حياة قبائل معدان، وهي مجموعة القبائل التي تسكن المستنقعات اليوم، والحياة اليومية لأقدم سكان المنطقة حسب ما يمكن استنباطه من خلال حفريات منطقة جنوب بلاد ما بين النهرين. وكان هذا الجانب أساسيًا لإثبات وجود علاقة خاصة بهذا المكان بالذات نشأت وتطورت بين الإنسان والبيئة الطبيعية، كما تنص شروط اليونيسكو المشار إليها أعلاه. ولا يعني هذا بالطبع أن قبائل معدان هم ورثة السومريين، وللإيضاح، فإن ذلك ليس هو النهج التفسيري المتبع في الملف.

ساعدت الأدلة التي أسفرت عنها عمليات التنقيب في تل أبو طيرة، والتي شارك في إدارتها مؤلفا هذه الورقة الموجزة، إلى حد كبير في إثبات هذه العلاقة بين الماضي والحاضر، وقدمت رؤية مباشرة للاستمرارية التاريخية للعادات والتقنيات/الأدوات.

لنبدأ بمذكرة طهي إثنوغرافية مختصرة - في المنطقة ١ في الجنوب الشرقي من التلة، عثرنا على طبق مقلوب واكتشفنا تحته عظم سمك اسودّ لونه تمامًا بسبب الطريقة التي تم بها طهي السمك (الشكل ٢٠١ يمينًا). وهو ما يذكّرنا بوصفة نمطية لطهي السمك، خاصة سمك الشبوط، في منطقة الأهوار اليوم (وقد انتشرت من هناك إلى جميع أنحاء العراق والعالم) تسمى «المسكوف» (وهو اسم مُشتق من «السقف» باللهجة العراقية) (الشكل ٢٠١ يسارًا).



الشكل ٢.١. ميمًا: عظم سمك وطبق من المبنى أ، غرفة ١، أبو طيرة. يسارًا: ما يسمى بمسكوف الأهوار.

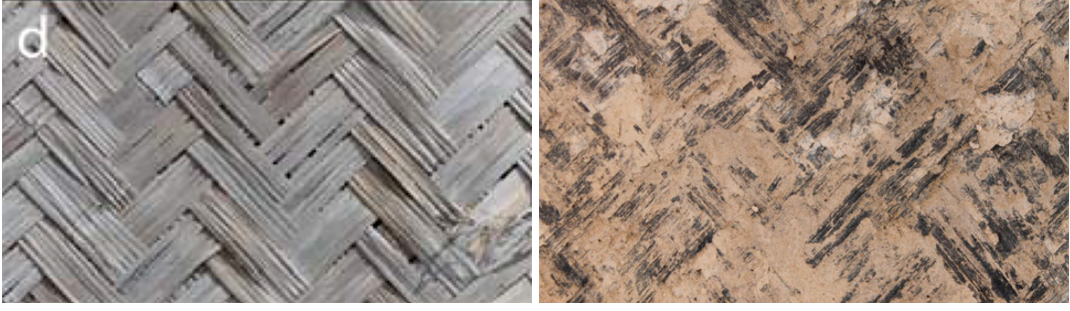
ويُطهى السمك حسب تلك الوصفة كالآتي:

تُشَقَّ [السمكة] بطول البطن وتنظف وتُبسط في شكل قطعة واحدة مسطحة. ثم تُقَسَّر جزئيًا وتقطع إلى نصفين متماثلين من البطن إلى أعلى... وتُفتح السمكة على شكل دائرة كبيرة متماثلة الجانبين. ثم توضع السمكة على كومتين من الأسياخ الخشبية، أو البديل الأكثر شيوعًا اليوم وهو مشواة حديدية كبيرة بمقبض وقفل مصممة خصيصًا لهذه الوصفة. ثم توضع الأسماك، إما في المشواة أو على الأسياخ، بالقرب من النار على «هيكل النار»^٢...

واسم الوصفة (المسكوف) مُشتق في الأغلب من الطريقة الغريبة التي يوضع بها السمك في شكل يشبه السقف فوق النار (أو هذا على الأقل ما أخبرنا به أصدقاؤنا العراقيون عن الأصل الشائع للكلمة). فهل من الممكن اعتبار عظم سمك أبي طيرة بقايا وجبة من السمك المطبوخ بطريقة المسكوف؟

فليكن ذلك ما يكون. هذا لأن هناك أدلة أكثر مباشرة يحملها استخدام المادة الخام الأكثر وفرة في المنطقة، في الوقت الحاضر كما في الماضي، وهي مادة القصب. أحد أكثر الأدوات المصنوعة من القصب شيوعًا في أبو طيرة هي حصيرة القصب، إلا أن أغراض أخرى من القصب قد عُثِرَ عليها أصلاً، مثل الدلاء والأطباق والصناديق. كتبت مؤخرًا ماريًا مونتورفاني، من جامعة لا سابينزا في روما، أطروحة عن الآثار المحفورة التي تركتها الأغراض المصنوعة من القصب في الطين الذي عُثِرَ عليه في أبو طيرة. واستطاعت أن تثبت أن نسج القطع الأثرية التي اكتشفت في عمليات التنقيب شبيهة إثنوغرافيًا بتلك التي تستخدمها قبائل معدان في الأهوار اليوم. وهكذا فإن نسج حصيرة القصب التي عُثِرَ عليها في غرفة من المبنى أ (الجنوب الشرقي) (الشكل ٣.١ ميمًا) لا يختلف كثيرًا عن نسج حصيرة من صنع أبو حيدر، وهو صديق من الشيش استخدام في صناعة حصيرته قصبًا نموذجيًا من الأهوار يُعرف علميًا باسم القيصوب الجنوبي (*Phragmites australis*، الشكل ٣.١ يسارًا).

ونجد في أبو طيرة أدلة على استخدامات هامة أخرى للقصب في العصور القديمة، وهي مُستدلٌ عليها أيضًا من خلال الدراسات الإثنوغرافية، بالأخص استخدام القصب في البناء. ومن دواعي سرورنا أن نذكر هنا صديق لنا، عالم الآثار الدكتور عبد الأمير الحمداني، الذي تكرم بمشاركته معلوماته الهائلة



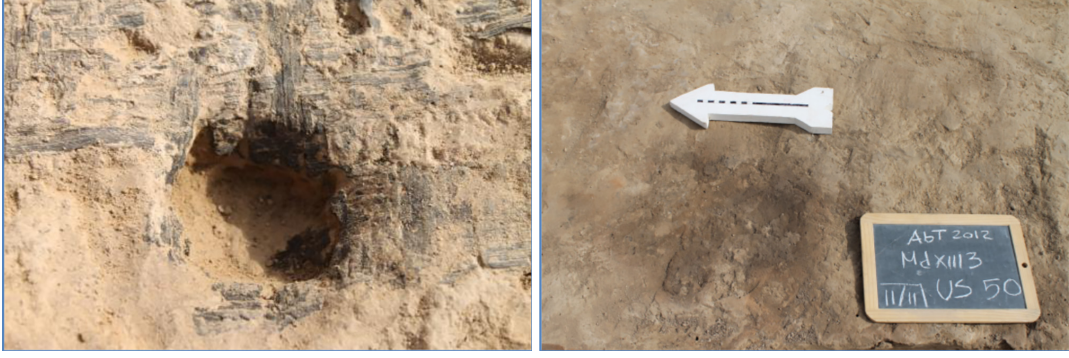
الشكل ٣.١. يمينًا: منظر لحصيرة القصب في الغرفة ١، المبنى أ، أبو طيرة. يسارًا: تفصيلة من حصيرة قصب معاصرة.



الشكل ٤.١. يمينًا: بقايا حزمة القصب في الغرفة ١٤، المبنى أ، أبو طيرة. يسارًا: تفصيلة من حزمة قصب معاصرة.

عن طريقة الحياة التاريخية في منطقة الأهوار، ما ساعدنا على فهم الأدلة الأركيولوجية. في الغرف ١٤ و ١٥ من المبنى أ، وجدنا بقايا من طين يحمل آثار قصب مصفوف، ما يشير إلى سياج تستخدم لتقسيم المساحة داخل الغرف نفسها، وهي ممارسة لا تزال موجودة في أكواخ القصب التي تسكنها قبائل معدان اليوم. بالإضافة إلى ذلك، وجدنا في الغرفة ١٤ من نفس المبنى آثار حزمة من القصب، تعرف باسم أعمدة أو أقواس القصب وتستخدم في بناء المضيف، وهو بيت القصب الذي يمثل مركز الحياة اليومية في الأهوار (الشكل ٤.١ يمينًا ويسارًا) وجدير بالذكر أن السطر ١٣ من اللوح الأول من ملحمة جلجامش، حيث يقوم الكاتب بدعوة القارئ/المستمع للنظر إلى تأمل جدران الوركاء الرائعة، يمكن ترجمته بالتغاضي عن بعض الشكوك الأبيغرافية على النحو التالي: «انظر إلى جدارها، في قوة؟) عيدان القصب (المربوطة»!)^٢ مشيرًا إلى الأقواس النمطية للمضيف.

لكن ربما كان أبرز الاكتشافات، وهو ما ربط بشكل أكثر مباشرة بين عادات بناء سكان أبو طيرة القديمة وقبائل معدان، هو ما تمثله الأدلة المكتشفة في الغرفة ٩. فقد وجدنا هنا حصيرة من القصب محفوظة بشكل جيد تغطي أرضية الغرفة بالكامل ومقطوعة عند المنتصف لخلق مساحة بيضاوية الشكل كان يوضع فيها الموقد، كما تبين الآثار المحروقة. ووجدنا أيضًا آثار ثقوب أعمدة/دعامات، من الواضح أنها أضيفت بعد أن بسطت الحصيرة في موضعها، كما يمكن الاستدلال من الطريقة التي أدخل بها القصب المتشابك بالقوة في ثقوب الأعمدة الخشبية، حيث وجدناها (الشكل ٥.١ يمينًا ويسارًا). ويتضح السياق الأركيولوجي المعقد فجأة إذا ما قارناه مع الأدلة الإثنوغرافية.



الشكل ٥.١. ميناء: آثار حروق من الموقد. يساراً: ثقب دعامة في حصيرة القصب في الغرفة ٩، أبو طيبة.

فكما يتضح من الصور التي التقطها في السبعينيات نيك ويلر (Young and Wheeler 1977; 1980)، يمكن تفسير الأدلة الأثرية بسهولة: فقبائل معدان تستخدم حصير القصب لتغطية الأرضية المطروقة داخل الغرف، مجوفة في المنتصف لوضع النار المستخدمة في الإضاءة أو الطبخ. أما السقف، الذي يتم بناؤه في كثير من الأحيان بربط عيدان القصب ببعضه، فيكون مدعوماً بأعمدة خشبية مثبتة مباشرة في حصيرة القصب. وتساعدنا الصورة على فهم سبب كون الثقوب صغيرة جداً، لا تتجاوز ٤-٥ سنتيمترات: فالدعائم في الواقع مدببة/مسنونة في آخرها/أطرافها.

خلال الحملة السادسة بدأنا في التنقيب في ميناء أبو طيبة (القطاع الغربي) ونحن على ثقة بأن الكثير من اكتشافاتنا سيتمكن شرحها من خلال المقارنات مع الحياة في الأهوار اليوم.^٤

مراجع

- Pournelle, J. 2003. The Littoral Foundations of the Uruk State: Using Satellite Photography Toward a New Understanding of 5th/4th Millennium BCE Landscapes in the Warka Survey Area, Iraq. Pp. 5-23 in D. Gheorghiu, (ed.), *Chalcolithic and Early Bronze Age Hydrostrategies*. BAR International Series 1123. Oxford: Archaeopress.
- Young, G. with photographs by N. Wheeler. 1977. *Return to the Marshes: Life with the Marsh Arabs of Iraq*. London: Collins.
- Young, G. with photographs by N. Wheeler. 1980. *Iraq: Land of Two Rivers*. London: Collins.

٤ اتخذ التعاون الإيطالي مع الطلب/الالتماس العراقي أشكلاً أخرى أيضاً. فقد صُمم نشاط جامعة سابيينزا Università la Sapienza في أور، بتمويل من وزارة الشؤون الخارجية الإيطالية، لإعداد خطط للحفاظ على المعالم الرئيسية للمدينة القديمة. وساعد ذلك في دعم اهتمام العراق بتراثه بالإضافة إلى إنتاج معلومات جديدة للملف نفسه. تم وضع الخريطة المحدثّة لأور المضمّنة في ملف اليونسكو باستخدام طائرة مسيرة (drone) وُضعت تحت تصرف المشروع، وذلك في ٢٠١٤. وفي نفس الوقت، تم إنشاء شكل ثلاثي الأبعاد لموقع دبلما (Dubla-mah)، مع خطة مقترحة للحفاظ عليه حتى تتم عملية ترميم كاملة للمكان وللمقابر الملكية لسلالة أور الثالثة. وسيكون العمل المستقبلي عبارة عن رسم بياني تقويمي كامل مع إنشاء شكل ثلاثي الأبعاد كجزء من خطة الحفظ، لمعبد زقورة أور غمو، الذي رُمّمه طه باقر في الستينيات.

الفصل الثاني

من البصرة إلى كامبريدج ... ذهاباً وعودة

نورست صباح وكلسي دافنبورت^١

جالسة أنا على مكتب كبير في غرفة الأبحاث الصغيرة بمتحف سدجويك لعلوم الأرض في كامبريدج.

أنا هنا بصفني فنانة وبغرض بحث مجموعة مقتنيات المتحف الخاصة بتكوين الحمار. وبينما أتمعن في محتويات الدرج الثاني من العينات، عثرت على مجموعة من اثنتي عشر حزمة صغيرة مكوّنة من ورق عادي مطوٍ عدة مرات ومربوط برباط مطاطي لم يلبث أن تكسر ما إن وضعت يدي عليه. الحزم مغطاة بملحوظات متنوعة مكتوبة على عجل. أتمكن من التعرف على خط يد الجيولوجي ويليام أ. مكفادين الذي توجد مذكراته في معروضات المتحف. جميع الحزم - وكلها مؤرخة منذ ٥٠ عامًا - مطوية بنفس الطريقة المعقدة، بطريقة تمنع محتوياتها من التبعثر كما تمنع أي باحث فضولي مستقبلي من إعادة طيها بالطريقة نفسها. على الحزمة الأكبر تم خطّ جملة «لا تسحق المحتويات» بالقلم الأحمر ... أقوم بفتح هذه الحزمة لأجد المحتويات، على ما يبدو، مسحوقة إلى حد كبير بالفعل ... أقضي بعض الوقت في فحصها وتحريكها بلطف تحت المجهر ... تبدو في الغالب حبيبات رمل وبعض بقايا الأصداف الأكبر قليلاً.

أقوم بصناعة فيلم قصير من خلال مزج مشاهد من الفحص الذي أجرته على حزم مكفادين الاثني عشر مع صور ثابتة من عينات أخرى التُقِّطت من خلال عدسة المجهر. يوحي هذا التبادل بين الصورة الثابتة والمتحركة، المواد في سكونها وحركيتها، بوجود حوار بين الحاضر والماضي، إذ تبدو القطع الأثرية المتحرك عبر الشاشة كهدف تطارده دوامة سوداء تسعى إلى الإمساك به وتهدد، في الوقت ذاته، بابتلاعه.

وأساءل ... من الشخص الذي كان مكفادين يتخيل أنه يكتب إليه قبل كل تلك السنوات.

كلسي دافنبورت

١ تجري المؤلفتان أبحاثاً تتقاطع بين الفن والجيولوجيا بغرض استكشاف القطع الأثرية المختلفة القادمة من العراق والموجودة الآن في متاحف جامعة كامبريدج. وقد بدأت تساؤل لاهم البحثية في الاتصال من خلال طرح الأسئلة على أوسع: ما الذي يمكننا تعلمه بشأن تلك القطع الأثرية من خلال إجراء أبحاث تمزج بين تخصصات الفن والجيولوجيا، أبحاث عن العمليات الديناميكية المؤثرة في أشكال الأرض وأسطحها وكيف تستمر في تشكيل حياتنا اليوم؟ أفسحت نقطة الانطلاق الأولية هذه المجال لتساؤل بحثي تجريبي ومفتوح، وهي تتطور الآن لتأخذ شكل ثلاثة خيوط بحثية متميزة: أولاً، من البصرة إلى كامبريدج: ذهاباً وعودة (متحف سدجويك لعلوم الأرض، ٢٠١٦)؛ ثانياً، معرض وندوة البيئة الطبيعية والأرشيف المتنوع عليه (البصرة وكامبريدج، ٢٠١٧)؛ وثالثاً، بلاد الرافدين: حضارات نُقشت بالطين (متحف الآثار والأنثروبولوجيا، كامبريدج، ٢٠١٨).

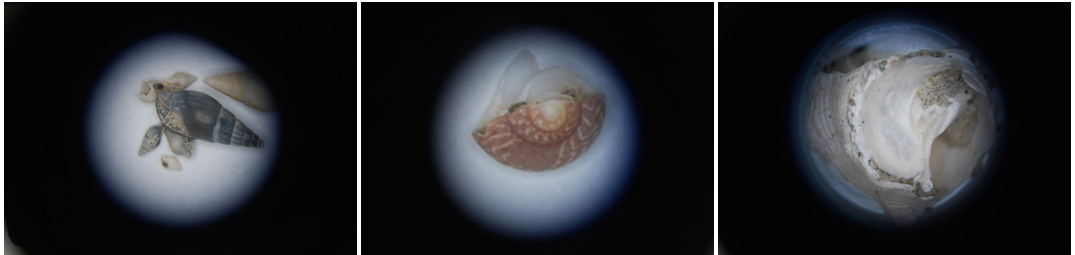
تطور السهل الرسوبي

في عام ١٩٦٦، تم إيداع مجموعة من العينات الجيولوجية المستخرجة من هور الحمار بالبصرة في متحف سدجويك لعلوم الأرض في كامبريدج، وشملت هذه العينات ستة أنواع جديدة من الرخويات أرسلت بعد حين إلى المتحف البريطاني ليتم تصنيفها هناك. توفر هذه القطع الأثرية، وقد تم الحصول عليها من خلال حفر التنقيب الخاصة بشركة نفط العراق وتبرع بها للمتحف الجيولوجي ويليام أ. ماكفادين، نقطة انطلاق لحوار بحثي يعاد إحياءه، بين البصرة وكامبريدج، بعد نصف قرن من الزمان.

تكوين الحمار

في البصرة، قام هدرسون وباحتون آخرون (١٩٥٧) بتحديد مجموعة حيوانية بحرية معينة في رمال وطي مجموعات حيوانية تم التحصل عليها من البئر الاستكشافية رقم ١ في حقل الزبير جنوبي هور الحمار، كما قام الفريق البحثي بربط هذه المجموعة الحيوانية مع رواسب تحتوي على مجموعة حيوانية ماثلة في البئر رقم ١ ورقم ١ في حقل نهر عمر على شط العرب بالقرب من الشاطئ الشمالي الشرقي لمنطقة هور الحمار، وفي آبار ضخلة في مدينة الفاو. وتتألف المجموعة الحيوانية من بطنقدميات صغيرة وصفائحيات خياشيم وزورقات أرجل وحزازيات ومرجانيات وسرطانات بحرية وبقايا قنابد البحر. ولأول مرة قدمت هذه المجموعة الحيوانية أدلة جيولوجية على الأحوال البحرية خلال العصر الهولوسيني المتأخر (Hudson et al. 1957). وعليه، افترض هدرسون ومن معه في ١٩٥٧ أن تكوين الحمار هو تكوين حديث في السجل طبقات الأرض (الاستراتيجرافي) للعراق. ومنذ ذلك الوقت ظهر العديد من الدراسات التي تبحث في هذا التعاقب المحدد للرواسب البحرية أسفل طمي السهل الرسوبي المنخفض.

يوضح جدول ١.٢ التسلسل الزمني لتكوين الحمار استناداً إلى دراسات متعاقبة، إلى جانب تطور الأفكار حول تذبذب مستوى سطح البحر. إلا أن مكفادين وفييتا-فينزي (Macfadyen & Vita-Finzi 1978) سجلا وجود مزيج من المجموعات الحيوانية النهرية والبحرية من آبار استكشافية على أعماق مختلفة تصل إلى ٢١ متراً في العمارة وكرمة علي. ولقد كان مكفادين هو من عثر على هذه المجموعة الحيوانية، بما في ذلك المنخريات البحرية في عام ١٩٣٦، وتم ربطها بالمجموعة الحيوانية الخاصة بتكون الحمار، وتبعاً لذلك، فإن حقيقة العثور على هذه الحفريات الدقيقة في هذا الموقع وعلى هذه الأعماق في حالة جيدة نسبياً، قد قدمت أدلة على أن دلتا أنهار دجلة والفرات والكارون القديمة امتدت في الماضي إلى الشمال الغربي حتى العمارة والناصرية على بعد ٢٥٠ كم من ساحل الخليج العربي اليوم. وعليه، فإن العديد من المسوحات الجيولوجية الإقليمية التي أجريت بين عامي ١٩٧١ و١٩٨١ توفر بيانات لأنواع مختلفة من الدراسات الجيولوجية حول تكوين الحمار والجيولوجيا الطباقية للسهل الرسوبي.



الشكل ١.٢. رسومات بالقلم الرصاص، من أعمال كلسي دافنبورت. حقوق الصورة محفوظة لكلسي دافنبورت.

المؤلفون	النتائج	الموقع	نوع البحث الاستقصائي	التاريخ
Hudson et al. (1957)	تحديد وتسمية تكوين الحفّار البحري والذي قدم دليلاً على موضع خط الساحل عند رأس الخليج العربي في الماضي القريب	بئر الزبير ٢١، بئر نهر عمر ٢	التعرف على مجموعة حيوانية تنتمي لعصر قريب وتصنيفها	١٩٥٧
Dance and Eames (1966)	صُنّف أحد أنواع ذوات الصدفتين وفُوتعين من البطلقديات ضمن أجناس جديدة، وصُنّف نوع آخر من البطلقديات تحت جنّيس فرعي جديد – لتعرف على مجموعات صغيرة من الرخويات الموجودة من بضعة أبار في تكوين الحفّار الحديث جنوب شرق العراق.	بئر الزبير ٢١، بئر نهر عمر ٢	تسجيل ثلاثة أنواع جديدة من ذوات الصدفتين وأربعة أنواع جديدة من البطلقديات	١٩٦٦
MacFadyen and Vira-Finzi (1978)	ترأّست رواسب الحفّار في مصبات الأنهار، وتبين أن حالة المياه البحرية والمياه الموسمية قد تقدّمت في الأوقات القريبة مسافة تزيد عن ٢٥٠ كيلومتراً شمال غرب الرأس الحالي للخليج الفارسي..	آبار استكشافية بالعقارة على نهر الفرات وكريمة علي	تسجيل أدلة مجموعة حيوانية تنتمي لبنية بصرية أو موسمية في أوقات حديثة نسبياً بالسهل الرسوبي	١٩٧٨
Yacoub et al. (1981)	تسجيل مجموعة حيوانية تضم محاربات وبطلقديات مع حفر جيري بطروخي، ويشير وجود المجموعة إلى تغيير حديث بطول الشواطئ الجنوبية لبحيرة الحفّار.	بحيرة الحفّار	مجموعة حيوانية مسجّلة في منطقة الخور	١٩٨١
Raji (1983)	المجموعة الحيوانية للمسجلة مكونة من منخرات وصدفيات في تتابع من الطمي السلتني الرملي الذي يشير إلى البيئة البحرية شديدة الضخالة.	الناصرية وسوق الشيوخ	تحديد مجموعة حيوانية بصرية	١٩٨٣
Yacoub et al. (1985)	يتراوح ارتفاع رواسب المصب النهري المسجلة بين ٢ إلى ١٠ أمتار في الآبار الموجودة تحت سطح الأرض في مناطق العقارة والقرنة والناصرية وسوق الشيوخ.	آبار استكشافية تحت سطح الأرض بالعقارة والقرنة والناصرية وسوق الشيوخ	رسم خريطة جيولوجية إقليمية للسهل الرسوبي	١٩٨٥
Agrawi (1993)	أثر النشاط النيوتكتوني إلى جانب تذبذب مستوى سطح البحر في تطور تتابعات دنلا الهولوسين بالسهل الرسوبي المنخفض وبصيراته الداخلية وأهواره الواقعة جنوبي السهل. لكن من الوازد أن يكون أثر تذبذب مستوى سطح البحر قد انتهى منذ ما يقارب ٣٠٠٠ سنة قبل الحاضر.	أهوار جنوب العراق	الأثر المترتب على التذبذب في مستوى سطح البحر والترسيبات والنيوتكتونيات بالنسبة لتطور الأهوار	١٩٩٣
Agrawi (1995)	تحديد عمر أقدم العينات البحرية والموسمية من تكوين الحفّار ونسبتها إلى العصر الهولوسيني المتأخر (أقل من ٨٥٠٠ سنة قبل الحاضر)، فيما تنتمي أحدث عينة إلى العصر الهولوسيني الأوسط (أكثر من ٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر). وتبلغ معدلات تراكم أقدم الرواسب الموسمية البحرية ٠,٢ مم/سنة، وهو معدل يُعدّ أعلى نسبياً مقارنة بمعدل تراكم رواسب البحيرات والأهوار والبالغ ٠,٢ مم/سنة.	عدة عينات من الرواسب السطحية ونحت السطحية من الآبار الضخالة في حوض السهل الرسوبي المنخفض	تأريخ رواسب غفوية غنية باستخدام الكربون المشع وتصحيح معدلات الانضغاط الميكانيكي للترسيبات الهولوسينية	١٩٩٥
Agrawi (2001)	تقسيم رواسب تكوين الحفار البحرية والموسمية المنتمية للعصر الهولوسيني المتوسط إلى أربع مجموعات، مرتبطة جيئاً بتتابعين علويّين التضخّن. تزامن ترسب هذين التتابعين مع طغيان البحر الذي بدأ قبل ٩٠٠٠ عامًا من الوقت الحاضر في رأس الخليج العربي وتقدّم شمالاً باتجاه البصرة قبل ٨٠٠٠ عامًا من الوقت الحاضر. إلّا أن طغيان البحر بلغ قوس الناصرية//العقارة 1٠٠٠ عامًا قبل الحاضر.	عدة عينات من الرواسب السطحية ونحت السطحية من الآبار الضخالة في حوض السهل الرسوبي المنخفض	الحد الانتزاعي لتغير المناخي خلال تطور دنلا السهل الرسوبي السفلي إبان العصر الهولوسيني	٢٠٠١

سيناريوهات تطور السهل الرسوبي

لعبت الأدلة الجيولوجية الخاصة بمحفرات الحمار البحرية، والأبحاث الاستقصائية اللاحقة عن الطغيان البحري ومدى بلوغه العمارة والناصية، دوراً في إعادة إحياء سؤال منشأ السهل الرسوبي وتكوين الأهوار. وإلى جانب اهتمام الجيولوجيين، فإن هذا السؤال يُعدّ في الواقع جوهرياً بالنسبة لعلماء الآثار والجغرافيين وباحثي الأنثروبولوجيا ورجال الدين، ذلك أن «الذكر الأول لتغير مستوى سطح البحر ورد في قصة طوفان نوح» (Coe 1990) وهذه هي نقطة البدء في سجل أهوار العراق، وفي هذا الصدد تقول كو: «بينما يتناقش العلماء وعلماء الآثار ورجال الدين حول صحة هذه القصة، فإن السؤال الذي يشغل الجيولوجيين هو أسباب تغير مستوى سطح البحر».

هناك ثلاثة سيناريوهات رئيسية لتطور السهل الرسوبي المنخفض. السيناريو الأول هو تذبذب مستوى سطح البحر. إذ قدم دي مورجان (De Morgan 1900) ولويد (Lloyd 1949) فرضية مفادها أن طغياناً بحرياً قد حدث عند رأس الخليج العربي عبر الأراضي الداخلية للسهل الرسوبي بمقدار مسافة لا تقل عن ٢٠٠ كم شمال غرب خط الساحل الحالي. وقد دعمت عدة دراسات جيولوجية هذه الفرضية، منها هدسون وآخرون (Hudson et al. 1957)، ومكفادين وفيتا-فينزي (Macfadyen & Vita-Finzi 1978)، وعقراوي (Aqrabi 1993, 1995, 2001). السيناريو الثاني هو الهبوط التكتوني، ففي عام ١٩٥٢ ربط ليز وفالكون نشوء الأهوار والبحيرة بهبوط تكتوني وفيضانات بحرية محلية حدثت خلال الماضي القريب لتطور السهل الرسوبي.

أما السيناريو الثالث فهو الارتفاع التكتوني الذي يمكن عزوه إلى ارتفاع تكتوني محلي للقباب وحقول النفط، بالإضافة إلى الأنشطة الزلزالية في المستويات الضحلة تحت السطحية. هذه الفرضية يدعمها النظام الجيوديناميكي العام للسهل الرسوبي باعتباره جزءاً من حوض أمامي تكتوني نشط (Al-Sakini 1986; Aqrabi 1993; Numan 1997; Jassim and Goff 2006).

قام العديد من الباحثين الآخرين في الفترة ما بين ١٩٥٧ و٢٠٠١ بإعادة إحياء فرضية دي مورجان التي تعود لعام ١٩٠٠ وترجح طغيان البحر من رأس الخليج باتجاه الشمال (انظر جدول ١.٢)، إلا أن دراستين لعقراوي (Aqrabi 2001; Aqrabi et al. 2006) أوضحتا أن المتتاليات الدلتاوية الهولوسينية يمكن أن تكون قد تأثرت بجميع السيناريوهات الواردة أعلاه، أي تغير مستوى سطح البحر والحركة النيوتكتونية، وأن يكون كلاهما قد أثر في التغيرات المناخية ومعدلات الإرساب. إلا أن الفهم الكامل لتطور السهل الرسوبي المنخفض يستلزم المزيد من الدراسات متعددة المنهجية في مجالات علم الرسوبيات، وعلم الحفرات، وعلم الجيولوجيا الطباقية الكيميائية، والتأريخ الإشعاعي.

العالم كمورد

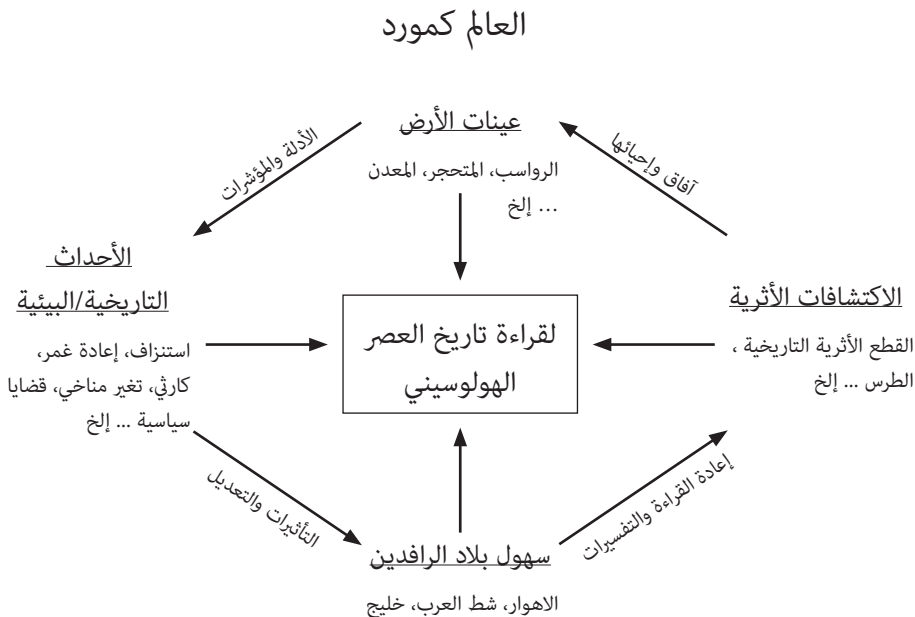
تظهر المسوح الجيولوجية الإقليمية المكثفة للسهل الرسوبي، خاصة تلك التي نفذتها GEOSURV أن الجيولوجيا الطباقية للوحدة الهولوسينية للسهل الرسوبي تتكون من تراكم رواسب مختلفة المنشأ، وهي رواسب فيضية، ورواسب المنخفضات الضحلة، ورواسب بحيرية، ورواسب الأهوار، ورواسب سبخية، ورواسب مصبات نهريّة وحت سطحية (تكوين الحمار)، ورواسب من صنع الإنسان ورواسب من قنوات الري، ورواسب رياحية (Yacoub 2011).

وبينما لا يتعدى سمك الرواسب البشرية ورواسب قنوات الري على طول مجاري الأنهار الرئيسية المهجورة - وتضاريسها مرئية بوضوح على السطح شبه المستوي للسهل - المتر الواحد، فهو يبلغ عدة أمتار في بعض المواقع الأركيولوجية (Yacoub 2011)، وقد يعود تاريخ هذه الرواسب إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد (Jacobsen & Adams 1958 in Yacoub 2011). علاوة على ذلك فإن المستوطنات التي سبق تدميرها، والتي إما نقلت أو تمت مراكتها في موقعها، تمثل المصدر الرئيسي لهذه الأعمار الأثرية (Yacoub 2011)، لذا فمن الطبيعي أن يضيف هذا الخليط من الرواسب الطبيعية والبشرية وتلك الناتجة من قنوات الري مزيداً من التعقيد على الجيولوجيا الطباقية للسهل الرسوبي.

لقراءة التاريخ الهولوسيني للسهل الرسوبي، علينا أن نألف بين فئات مختلفة من المعلومات (الشكل ٢.٢)، تشمل ما يلي: الأدلة الجيولوجية، والأحداث التاريخية و/أو البيئية، والاكتشافات الأركيولوجية، والنظام المعقد للسهل الرسوبي.

وتوفر العمليات الطبيعية للسهل الرسوبي عوناً لنا في إعادة قراءة وتفسير الاكتشافات الأركيولوجية، وكذلك في تتبع خطوط السواحل القديمة ومن ثم تحديد مواقع المدن القديمة. وتزداد الإمكانيات المنتظرة من هذه المواضيع المختلفة من خلال دمج مفاهيم وسيناريوهات علم الأرض فيما يتعلق بالسهل الرسوبي. ومن خلال بحثنا التعاوني، فإننا نتأمل في موضوع "العالم كمورد" بمعناه الواسع، متخذين مصادرها من أرشيفات الأرض والمتاحف والذاكرة البشرية، ومستلهمين منها حافزاً لإنتاج استجابات خلاقة لأوضاع معينة في واقعنا الراهن.

أدت الكارثة البيئية المتمثلة في التجفيف الأخير لأهوار جنوب العراق (والتي حدثت بين الخمسينيات والتسعينيات) إلى تقليص مهول في نطاق الأهوار. إلا أنه في مارس/آذار ٢٠٠٤ أعيد غمر حوالي ٢٠٪ من الامتداد الأصلي لمساحة الأهوار، أي ١٥٠٠٠ كم مربع (Richardson et al. 2005)، وفي ديسمبر/كانون أول ٢٠٠٦ عادت الأهوار إلى ٥٨٪ من إجمالي مساحتها مقارنة بنطاقها في الفترة ١٩٧٣-١٩٧٦ قبل



الشكل ٢.٢. خريطة ذهنية للخروج بمقاربة متعددة التخصصات لقراءة التاريخ الهولوسيني للسهل الرسوبي.

التجفيف (IMOS 2016). وفي ٢٠٠٩ بلغت مساحة الأهوار ٣٠٪ من حجمها الأصلي بسبب الاستمرار في بناء السدود أعلى النهر واستخدام المياه في تركيا وسوريا وإيران (Muir 2009). في الواقع، فإن كل هذه التدخلات البشرية يمكن إدراجها في حقبة الأنثروبوسين المقترحة.

ستستمر الطبيعة في تلقيننا درسها الدؤار وفي إمدادنا بالمزيد من القصص حول الأرض القديمة وحضارتها، فيما ستستمر الأرض في الحفاظ على دوراتها وعلى حيوات البشر وحيوات الأماكن التي سكنها البشر. ولن يتعدى أثر عملية تجفيف الأهوار الأخيرة - كتغيير بيئي - على الأرض أكثر من الشريحة الرقيقة للهياكل الرسوبية، ولكن من خلال متاحفنا وأبحاثنا في علوم الأرض سنحتفظ به إلى الأبد في ذاكرتنا الإنسانية.

مراجع

- Al-Sakini, J. 1986. Neotectonic activity in Basrah vicinity and the dryness of western canals of Shatt Al-Arab. Pp. 415-16 in *Proceedings of the First Symposium on Khor Al-Zubair, Marine Science Center*. Basra: Basrah University.
- Aqrabi, A.A.M. 2001. Stratigraphic signatures of climatic change during the Holocene evolution of the Tigris-Euphrates delta, lower Mesopotamia. *Global and Planetary Change* 28: 267-83.
- , 1995. Correction of Holocene sedimentation rates for mechanical compaction: the Tigris-Euphrates Delta, Lower Mesopotamia. *Marine and Petroleum Geology* 12: 409-16.
- , 1993. Implication of sea-level fluctuations, sedimentation and neotectonics for the evolution of the marshland (ahwar) of southern Mesopotamia. *Quaternary Proceedings* 3: 21-31.
- Aqrabi, A.A.M., J. Domas and S.Z. Jassim. 2006. Quaternary deposits. Pp. 185-98 in S.Z. Jassim and J.C. Goff (eds.), *Geology of Iraq*. Brno: Dolin; Prague and Moravian Museum.
- Coe, A. 1990. Sea-level change. Pp. 34-55 in A.L. Coe (ed.), *The Sedimentary Record of Sea-Level Change*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Dance S.P. and F.E. Eames. 1966. New molluscs from the recent Hammar Formation of southeast Iraq. *Proceedings of the Molluscan Studies* 37/1: 35-43, pls. 2-4.
- Hudson, R. G. S., F. E. Eames and G.L. Wilkins. 1957. The fauna of some recent marine deposits near Basrah, Iraq. *Geological Magazine* 94/5: 393-401.
- IMOS, n.d. Iraq Marshlands Observation System. Global Resource Information Database - Geneva. <http://www.grid.unep.ch/activities/sustainable/tigris/mmos.php> [accessed 7.27.16].
- Jassim, S.Z. and J.C. Goff. 2006. Phanerozoic development of the Northern Arabian Plate. Pp. 32-44 in S.Z. Jassim and J.C. Goff (eds.), *Geology of Iraq*. Brno: Dolin; Prague and Moravian Museum.
- Macfadyen, W. A., and C. Vita-Finzi. 1978. Mesopotamia: the Tigris-Euphrates delta and its Holocene Hammar fauna. *Geological Magazine* 115/4: 287-300.
- Morgan, J. de. 1900. *Mémoires de la délégation de Perse*. Paris: Leroux.
- Muir, J. 2009. Iraq marshes face grave new threat. *BBC News, Middle East, Iraq* (2/24/2009) <http://news.bbc.co.uk>.
- Numan, N. M. S. 1997. A plate tectonic scenario for the Phanerozoic succession in Iraq. *Journal of the Geological Society of Iraq* 30: 85-110.
- Raji, W. 1983. *Paleontological and Environmental Study of the Mesopotamia Plain in Samawa- Nasiriya*. Baghdad: GEOSURV int. rep. no. 1321.

- Richardson, C.J., P. Reiss, N.A. Hussain and A.J. Alwash. 2005. The restoration potential of the Mesopotamian marshes of Iraq. *Science* 307: 1307–11.
- Yacoub, S.Y. 2011. Stratigraphy of the Mesopotamia plain. *Iraqi Bulletin of Geology and Mining* 4: 47–82.
- Yacoub, S. Y., B. H. Purser, N. H. Al-Hassani, M. Al-Azzawi, F. Orzag-Sperber, K. M. Hassan, J. C. Plaziat and W. R. Younis. 1981. Preliminary Study of the Quaternary Sediments of SE Iraq. Joint Research Project by Geological Survey of Iraq and University of Paris XI, Orsay. Baghdad: GEOSURV, int. rept. no. 1078.
- Yacoub, S. Y., S. H. Roffa and J. M. Tawfiq. 1985. *The Geology of Al-Amara – Al-Nasiriyah – Al-Basrah Area*. Baghdad: GEOSURV, int. rep. no. 2016.

أحيائي من الحرية: ملاحظات حول تصوير الزمن في الخرائط التاريخية

ألكسي يانكوفسكي^١

جاء المقال الحالي من تطوير المشروع الجغرافي المعلوماتي، «الزمن على الخريطة»، والذي يهدف إلى عرض حراك الأحداث التاريخية في الحيز المكاني. لا تكمن صعوبة هذا المشروع في التنفيذ التقني بقدر ما تكمن، كما يمكن التخمين، في المنهجية المتبعة. فبخلاف الاستخدامات الأخرى لنظم المعلومات الجغرافية ذات البعد الزمني، لا يقدم لنا التاريخ بيانات كافية بدرجة مجدية. سنقوم في هذا المقال بعرض بعض الأفكار والملاحظات الناتجة عن عملنا والتي نأمل أن تكون ذات فائدة للأغراض التعليمية والمعرضية.

نظرًا لأن ديناميات الأحداث التاريخية في جنوب بلاد الرافدين ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالسماط الطبيعية للمنطقة، فقد رأينا أن الحراك الفيزيوجغرافي أو تغيرات الجغرافيا الطبيعية كفيلة بأن تقرّبنا من التجسيد البصري المرتكز على الزمن، ولذلك وقع اختيارنا على هذه المنطقة لدراسة تجريبية. ولنكون أكثر دقة، فالمنطقة التي ركّزنا اهتمامنا عليها هي منطقة القطر البحري، وهي وفقًا للمصادر الأكاديمية تقع تقريبًا جنوب خط عرض ٣٢° شمال، وتنتشر فيها القنوات المتغيرة لنهر الفرات ودجلة وروافدهما والقنوات الاصطناعية والبحيرات الموسمية والدائمة. وعلى ما يبدو فإن هناك إجماع على أن التطور الأول للعمران والنظم الاجتماعية المعقدة ولأول أشكال الدولة في جنوب بلاد الرافدين قد نشأ عن التفاعل بين البيئة المستنقعية ومناطق الزراعة المروية (Van de Mieroop 2007: 13; Kozyreva 2016: 26) مع الدراسات الحديثة).

ونحن مع وجهة نظر عبد الأمير الحمداني (al-Hamdani 2015: 177) القائلة إن القطر البحري هو منطقة المستنقعات حيث توجد مساحات من المياه المفتوحة والعميقة، وليس البحر المفتوح بعيدًا عن أي مراكز نمو حضري. ونظرًا لطابعها الموسمي والمتغير، فلا ينبغي تصور المستنقعات كمضلع ثابت في سياق نظم المعلومات الجغرافية، بل كمجموعة متغيرة من المضلعات ذات حدود ملتبسة وتتخللها أراضي مزروعة تمر عبرها قنوات الري والصرف. إن هذه الصورة المتشابكة ضرورية بالنسبة للإعدادات التعليمية أو المتاحف، حتى في شكل مبسط، لأنها تساعد على فهم ظروف التفاعل. يوضح الحمداني أن نهر دجلة قد تحول تدريجيًا نحو الشرق، جنوب خط عرض ٣٢° شمال تقريبًا، ومعه نظام كامل من الروافد والمستنقعات. وتُظهر خرائط الحمداني المبدئية، والمستندة إلى صور الأقمار الصناعية

والمسوحات الأرضية، كيف تحركت منطقة الأهوار بين العصر البابلي القديم والعصر العباسي (أي من حوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد إلى ١٠٠٠ ميلادياً)، من المراكز الحضرية القديمة مثل أور على الجانب الغربي، إلى الأحداث على الجانب الشرقي، ناحية خوزستان، وأشهرها خاركس سباسينو (انظر كامبل وآخرين في هذا المجلد). ومع ذلك، فإن تيار التحوّل هذا تواجهه بعض التناقضات المحلية.

أسسها الإسكندر في ٣٣٤ قبل الميلاد وحملت كل من الأسماء التالية: الإسكندرية، أنطاكية، خاركس سباسينو، أستراباد أردشير، كرخ ميسان. تُعدّ تلك المدينة مثلاً على وجود مركز حضري على أطراف القطر البحري، استمر منذ أواخر العصور القديمة ومروراً بالعصور الوسطى حتى العصور الإسلامية، حين جاء آخر ذكر لها بقلم المستوفي في ١٣٤٠ م. (Hansman 1967: 27). وعلى الرغم من أن عمر المدينة حوالي نصف عمر مدينة أور، إلا أنه على مقياس مشابه من الأهمية: حوالي ١٩٠٠ عام في حالة خاركس و٣٥٠٠ سنة أو أكثر في حالة أور. ولابد أن هذه المدة التقريبية تعكس الواقع الاجتماعي والاقتصادي والهيدروغرافي: ففي الفترة الزمنية التي لم تقدر بعدها المدينة القديمة في بلاد الرافدين على الصمود أمام ترسيب قاع النهر والتغيرات في موقعها.

السيبل الوحيد لإظهار تحولات منطقة المستنقعات بشكل واقعي هو إظهاره بشكل ديناميكي، مع دورات التطوير والهجر التي مرت بها شبكة القنوات. نظراً لعدم توفر بيانات كافية لتحديد مواقع القنوات بشكل دقيق، نعتزم محاكاة معظم المواقع باستخدام دالة شجرة كسيرية. على الرغم من مظهرها الأشبه بلعبة، فهي أداة مفيدة للإشارة بصرياً إلى ما كان عليه الواقع، كما يمكنها أن تكون نموذجاً يساعد في توفيق تخيلاتنا مع الحقائق الجغرافية. لعبة أخرى، ربما تضاهي شبكة القنوات نفسها في الإبهار وإن كانت أقل نفعاً، هي دالة رياضية توضح تحولات قناة النهر من خلال التعرجات (Frascati & Lanzoni 2013).

يتبع تطور الهيدروغرافيا الآلية الموجودة في الكثير من العمليات الطبيعية، ويرد وصفها في «نموذج صندوق رمال» باك-تانغ-فينزفلد على أنها «تعقيد منظم ذاتياً»، بمعنى تراكم أحداث صغيرة يؤدي مع الوقت إلى تغييرات كارثية في حالة نظام ما (Bak 1996). يتكيف المجتمع الإنساني مع مثل تلك الأحداث الكارثية، لكنه نفسه يخضع لاحتمالية التعقيد المنظم ذاتياً من خلال الأحداث الصغيرة والتغيرات الكارثية التي يمر بها، وهي يمكن توقعها من حيث المبدأ ولكن لا يمكن التنبؤ بها في نطاق زمني محدد (Jankowski 2011: 74). ويُعتبر كل من النظامين، الطبيعي والبشري، «نظاماً مُبدّداً»، أي بحاجة إلى مصدر خارجي للطاقة ليستمر في الدوران.

تم تحقيق أقصى تطوّر لشبكة القنوات أثناء العصر الساساني. فإذا يمكن أن يقال عن الحالة المقابلة للطاقة في المجتمع البشري المحيط؟ يصر إيجور دياكونوف (Diakonoff 1999: 7) في كتابه مسارات التاريخ على أن «الأنشطة الاجتماعية للإنسان تعتمد على تقييمه النفسي والاجتماعي». في أي مجتمع عامل يوجد توازن دقيق بين الإكراه (أو الاضطراب) والحرية؛ بيد أن جزء «الحرية» من المعادلة يمثل مُدخلات الطاقة، والتي ينهار بدونها الهيكل الاجتماعي باعتباره نظام مُبدّد. فالمهام الاجتماعية لا تُحقق بشكل مناسب دون شعور الأفراد الذين يقومون بها بالأهلية المستقلة.

وكما جاء في مبدأ كسري، حسب رواية المسعودي:

تعتمد السلطة الملكية على ... ضريبة الأرض، وتعتمد ضريبة الأرض على الزراعة، وتعتمد الزراعة على الإدارة العادلة، وتعتمد الإدارة العادلة على نزاهة المسؤولين، وتعتمد سلامة المسؤولين على موثوقية الوزير، وتمثل ذروة كل هذا في يقظة الملك وقدرته على مقاومة رغباته الشخصية ... (مترجم عن سميث ٢٠٠٣: ٢٠٠، من كتاب المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر).

بدون هذا المكون - المشاركة الشخصية للأفراد - يصبح الهرم المثالي للدولة الساسانية سلامًا: اختفت نزاهة المسؤولين الحكوميين أو أنها لم تكن موجودة من الأساس، وأصبحت الضرائب المفروضة أكثر ابتزازًا، وبدأ نظام شبكة القنوات المتطورة في التهاوي بعد أن عجزت أو تقاعست الدولة عن تحمل تكلفة الاستثمار في نظام الري الضخم. وتوضح خريطتنا انهيار شبكة القنوات في العصر ما بعد الساساني وتقلص الأراضي الصالحة للزراعة. لكن يبدو أن خاركس-كرخ ميسان قد نجت من هذا الانهيار لعدة قرون.

بعد الانتهاء من رسم السمات الجغرافية الطبيعية، علينا الانتقال إلى التفاعلات الإنسانية بشكل أكثر تحديدًا، بدءًا من التجارة. كان موقع خاركس عند نقطة التقاء نهر كرخة الذي يجري من سوسيان مع دجلة مع نظام مستنقعاته، بمثابة ممر من شمال بلاد الرافدين وسوريا إلى الخليج العربي والهند. واستلزم ذلك: نقل وتخزين البضائع بكميات هائلة؛ تجار كانوا يضطرون إلى الاختباء من العديد من المخاطر، بما في ذلك خطر السرقة؛ وجهات فاعلة داخل وخارج الحكومة. قد تفيد هنا المقارنة مع محطة التجارة الآشورية القديم في كانيش، بالقرب من مدينة قيسرية الحديثة بتركيا، في أوائل الألفية الثانية قبل الميلاد (Jankowska 1968: 41, 47-49). فبينما كانت الإدارة الرئيسية لتلك المنظمة التجارية مقرية من القصر ومطلوب منها تسليم البضائع له، كان اعتماد التجارة اليومية على القرى الواقعة على طول الطريق، وعلى فرص تخزين وإخفاء البضائع على وجه التحديد. وحتى في أيامنا هذه تلعب أماكن التخزين غير الظاهرة دورًا مهمًا في تجارة المنطقة. فمن الطبيعي أن نتصور أن المستنقعات، التي كانت بمثابة ملجأ لجميع أنواع الهاربين من عهد سرجون إلى عهد صدام، قد ساعدت أيضًا في جعل خاركس مركزًا عالميًا للتجارة، ذلك لأنه كان من المستحيل الوصول إلى بتر أو تدمر دون عبور القطر البحري.

يوجد أيضًا العديد من الأمثلة لمراكز تجارية تعود إلى العصور القديمة أو الوسطى قامت في بيئة مُحَصَّنَة، مما أتاح إحكام السيطرة في الوصول إلى المدينة نفسها وإلى مرافق التخزين والنقل بها. يُعد مركز التجارة الصحراوية في تدمر أحد الأمثلة المعروفة، ولكن يمكن ذكر أمثلة أخرى أيضًا. فهناك مثلًا أرواد، وهي بلدة صغيرة تشغل جزيرة بأكملها قبالة الساحل السوري وتستمد المياه من مصدر تحت البحر. كانت بارزة في عصر العمارنة، حوالي ١٣٥٠ قبل الميلاد، ولكن جاء ذكرها في عدة مواضع بعد ذلك وحتى وقت سترابو (اسطرابون) ولا تزال موجودة حتى يومنا هذا (Yunusov 2015: 317). ومدينة البندقية، التي أسسها اللاجئون الرومان الفارون من غزو الجرمان والهون، مثال معروف آخر لمركز تجاري مهم يحصنه موقعه داخل بحيرة مستنقعية.

يشير الحمداني في أطروحته غير المنشورة إلى أنه في فترات عدم استقرار القوة المركزية أنتجت الأهوار «الدول الظل» - على السهل الرسوبي في العصور الأقدم وخارجها فيما بعد. وهو يركز بشكل خاص على الاستقلال السياسي لهذه الدويلات، لكن من أجل أغراضنا هنا، سنحول التركيز من «الدولة»

إلى «الظل».^٢ يقدم ميشال جوليكوفسكي (Gawlikowski 1994: 31) صورة مشابهة للجزء الصحراوي من طريق تدمير التجاري: «إن نجاح كل قافلة... يعتمد بالكامل على العلاقات مع القبائل البدوية. علينا أن نتخيل نسيجاً معقداً من الضيافة والتبعية وحتى النسب بين حاكم الصحراء ووجهاء المدينة.» وينطبق الكلام نفسه على حكام الأهوار كذلك.

هناك حاجة إلى نظام يمكن التنبؤ به لتجنب الفوضى، وكانت الكونفدرالية التعاونية التي لا تحتاج إلى تثبيت مؤسسي إحدى أشكال ذلك. حتى إذا كان التعرض المتكرر لقطع الطرق من ضمن من آثار ترتيب مثل هذا، فالتعامل بنظام غير رسمي يُعتبر نافعا للتجارة. ولم يعني ذلك حرمان حاكم الدولة من الألقاب والمواكب. الأهوار التي انتمت بالاسم فقط إلى المؤسسات السياسية المركزية خرج منها ما هو أكثر من حصير القصب ومنتجات الألبان والأسماك إلى المدن المحيطة: فقد أنتجت أيضاً أفراداً نشأوا وسط عاداتها وتقاليدها، في أماكن كانت سيطرة الدولة المركزية فيها صعبة أو مستحيلة، وكان الإحساس بالأهلية، أي «مدخل الطاقة» في أي مجتمع بشري، ضرورياً للبقاء على قيد الحياة.

مراجع

الحموي، ١٩٧٧. معجم البلدان. بيروت: دار صادر.

- Al-Hamdani, A. 2015. *Shadow States. The Archaeology of Power in the Marshes of Southern Mesopotamia*. Unpublished PhD dissertation. New York: Stony Brook University.
- Bak, P. 1996. *How Nature Works. The Science of Self-Organized Criticality*. New York: Copernicus.
- Diakonoff, I. 1999. *The Paths of History*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Frascati, A. and S.A. Lanzoni. 2013. Mathematical model for meandering rivers with varying width. *Journal of Geophysical Research: Earth Surface* 118: 1641–57.
- Gawlikowski, M. 1994. Palmyra as a trading centre. *Iraq* 56: 27–33.
- Hansman, J. 1967. Charax and the Karkheh. *Iranica Antiqua*. 7: 21–58.
- Jankowska, N.B. 1968. *Cuneiform Texts from Kültepe in the Collections of the USSR* (in Russian). Moscow.
- Jankowski, A. 2011. Self-organized criticality and free will (in Russian). *Mir Psikhologii*, 2: 68–74.
- Kozyreva, N. 2016. *Studies in the History of Southern Mesopotamia in Early Antiquity*. St.Petersburg: Contrast.
- Smith, A.T. 2003. *The Political Landscape: Constellations of Authority in Early Complex Polities*. Berkeley, Los Angeles, London: University of California Press.
- Van de Mieroop, M. 2007. *A History of the Ancient Near East*. Malden, Oxford, Victoria: Blackwell Publishing.
- Yunusov, M. 2015. Ancient testimonies of the Syrian (Phoenician) city of Arwad (in Russian). In *Asia and Africa in the Changing World, Materials of the Materials of the XXVIII International Conference on Historiography and Source Studies of Asia and Africa*, St. Petersburg.

٢ «كانت ملجأ كل خائف ومأوى لكل مُستبعد. إذا هرب خائف من بغداد، التي يحكمها بنو العباس وآل بوية والسلاجقة، فستكون البطحة وجهته، حيث لا توجد وسيلة للوصول إليه حتى بالقوة المسلحة.» 86 al-Hamdani 2015، من ياقوت الحموي (١٩٧٧: ٤١٥).

الفصل الرابع

قناة بلوكاتو والقطر البحري والإسكندر

ستيفاني دالي^١

بسبب الطبيعة المستنقعية للمنطقة الواقعة جنوب شرق العمارة خلال القرنين الماضيين، فإن إحاطة علماء الآثار بهذه المنطقة كانت حثة الآن محدودة. إلا أن العمل الذي تقوم به عدة فرق عراقية ودولية بصدد أن يغيّر من ذلك الوضع، ومن بين أعضاء تلك الفرق ستوارت كامبل وجين مون وروبرت كيليك في موقع الإسكندرية - خاركس سباسينو (راجع التفاصيل في هذا الكتاب)، وأيضًا المتحف البريطاني تحت إشراف سياستيان ري وغيرهم في موقع جيرسو. وتركز الأبحاث في هذه المواقع إلى حدٍ ما على فترات زمنية ومستويات بناء لاحقة على تلك التي يهتم بها الكثير من متخصصي الدراسات الأشورية وأمثالي من متخصصي الكتابة المسارية، لكن آمل أن تسمح باستعراض المناطق المستنقعية المختلفة في جنوب العراق في العصور القديمة وبدراسة تاريخ إدارة القنوات وفروع الأنهار وارتباطه بنشأة هذه المناطق المستنقعية، وأن توضّح لنا سياق اختيار الإسكندر لموقع بناء إسكندرية الجديدة. ينصب التركيز بشكل خاص على قناة بلوكاتو بهدف تجميع الأدلة على استخدام مطوّل ومتواصل حتى وإن تخلّته بلا شك فترات صيانة وتعديلات.

سمّيت بعض السلالات في قوائم الملوك المسارية في العصور التاريخية القديمة بسلالات القطر البحري، كما أطلق على بعض ملوكهم «الكلدان» وهو مصطلح لا زال ينقصه تعريف مرضي ولكنه ارتبط ارتباطًا واضحًا بالقطر البحري. تأثرت العلاقة بين المدن القديمة مثل لارسا (سنكرة) والوركاء وأور من ناحية وأهل القطر البحري في الأهوار من ناحية أخرى دون شك بإدارة القنوات والسيطرة على الفيضانات خاصة في الأراضي الزراعية، حيث أن الفيضانات الوافدة من نهري دجلة والفرات كانت تتزامن تقريبًا مع وقت الحصاد وكان يمكنها إحداث أضرارًا كبيرة. في أوقات الرخاء، تولّى المسؤولون العمرانيون إدارة الفيضانات، ولكن في أوقات الركود قد تكون تلك المدن قد تحولت إلى مجرد مراكز دينية وشعائرية تتخذ من القلاع مركزًا لها بينما تحيطها الفيضانات من كل جانب.

الأهوار في جنوب غرب العمارة

ربما يعتقد بعضنا في الغرب، ممن استمتعوا بقراءة كتاب ويلفريد ثيسيجر، عرب الأهوار (Wilfred Thesiger, *The Marsh Arabs*)، أن الأهوار في العراق توجد بشكل أساسي في المنطقة الواقعة جنوب

١ كان من دواعي سروري أن تتاح لي فرصة المساعدة في إنشاء متحف البصرة الجديد، الذي تشكل تحت القيادة الفاعلة والفعالة لقحطان العبيد وفريقه من مجلس الدولة للآثار والتراث. ولقد أسعدتني كثيرًا فرصة العمل معهم على التاريخ الغني لأقدم ثقافة حضارية في العالم القديم.

العمارة وخاصة إلى غرب المسار الحالي لنهر دجلة (انظر يانكووسكي في هذا الكتاب). وبعض الخرائط المبدئية الحديثة التي تبين الأهوار في العصور القديمة تركز على تلك المنطقة. بينما تظهر أخرى المنطقة المحيطة بشط العرب حيث يتلاقى نهرا دجلة والفرات، مع خطوط متقطعة مختلفة تشير إلى تكهنات بخط الساحل القديم. وقد ساهم العديد من أعمال المسح وصور الأقمار الصناعية مؤخراً في تحديد خطوط تغيّرات معيّنة في مسارات الأنهار وفروعها وروافدها، ولكن من الصعب تحديد تاريخ نشوئها أو الأوقات التي بطل فيها استخدامها أو عاد بعد فترة من الإهمال.

كانت أشهر مدن القطر البحري في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع قبل الميلاد هي مدينة دور ياقين، وهي مستوطنة لم يُحدّد موقعها بعد وكانت ملجأ لملك القطر البحري مردوخ بلادان (مردوخ أبلا إيدينا) الثاني الذي حكم بابل في فترتين منفصلتين: في عهد الملكين الآشوريين سرجون الثاني (٧٢١ - ٧٠٥ ق.م.) وسنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق.م.). وتوضح النقوش وتماثيل القصر من هاتين الفترتين أن المنطقة المحيطة بدور ياقين كانت بالفعل منطقة مستنقعية في ذلك الوقت، ولكنها ربما بشكل مؤقت إذ أن الفيضان ربما كان مقصوداً كإجراء دفاعي.

الأهوار شرق بورسيبا واسم «بلوكاتو»

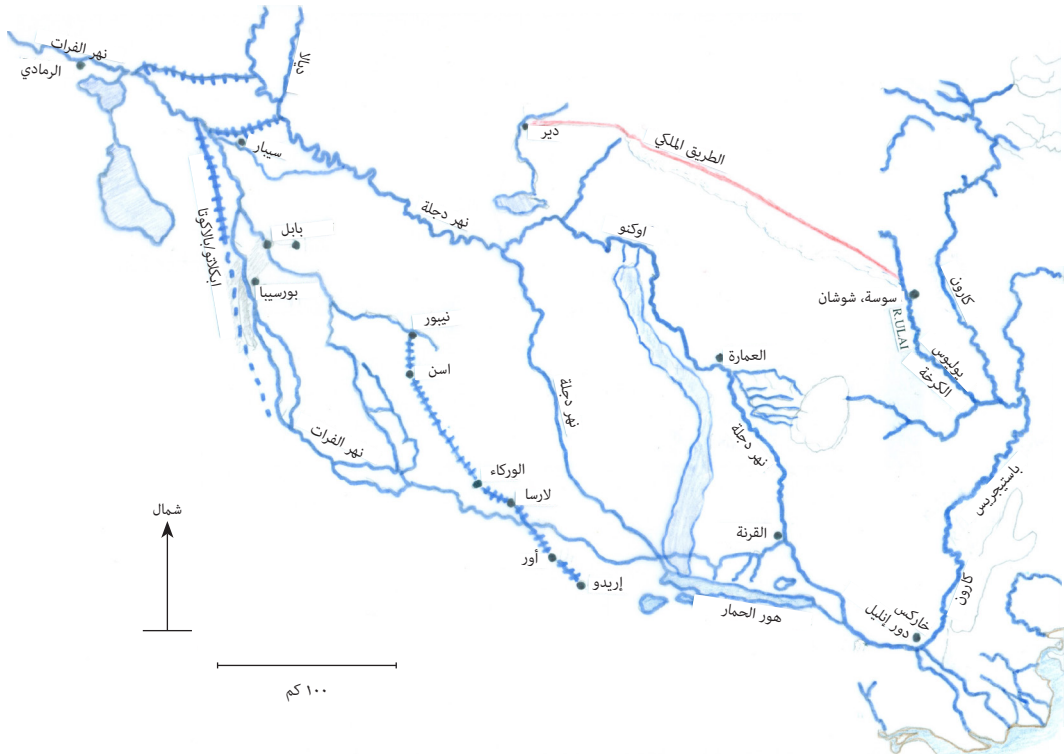
استخدم ستيفن كول (١٩٩٤) أدلة مستخلصة من النصوص المسبارية لإظهار أن المنطقة الريفية الواقعة غرب نهر الفرات بالقرب من بورسيبا، على بعد أميال قليلة في الجنوب الغربي من بابل، تألفت في أغلبها من الأهوار. ويشمل بحث كول الفترة ما بين أوائل القرن السادس قبل الميلاد وحتى وقت الإسكندر الأكبر. عرفت تلك المنطقة أيضاً باسم القطر البحري (تاماتو) وأطلق على إحدى بوابات مدينة بورسيبا اسم «بوابة البحر». كانت توجد أيضاً بوابة هويس، ربما أكثر من واحدة، للتحكم في تدفق المياه في ذلك الوقت. وكانت القناة التي تسحب المياه من نهر الفرات على ضفته الغربية تُسمى «قناة صاحبة الحكمة»، باستخدام كلمة تعني شخصاً حكيماً في العصور البدائية. وتم التأكد من اسم القناة لأول مرة مع هجاء لا لبس فيه من أدلة تنتمي لمنتصف القرن السادس قبل الميلاد، وهو عصر الملك نبونيد (٥٥٦ - ٥٣٦ ق.م.). تنقسم الآراء حول ما إذا كانت هذه القناة هي نفسها التي كُتب اسمها في أوقات تسبق ذلك التاريخ بكثير باستخدام رسم لفظي بطريقتين مختلفتين: ID AB.GAL (في عام الملك هاليوم، وهو حاكم كيش في أوائل الألفية الثانية قبل الميلاد)، ويعني فيما يبدو «قناة البقر الكبير» وهو اسم غريب؛ أو ID NUN.ME وهي كتابة بديلة لـ AB.GAL («قناة ذات الحكمة») قد نشأت في الأغلب في أواخر الألفية الثالثة قبل الميلاد (Edzard & Farber 1974: 252-3). AB.GAL مع العلامة AB₂ قد تكون كتابة بديلة للعلامة AB₍₁₎. وربما كانت حماية بابل في ذلك التاريخ المبكر أقل أهمية مما أصبحت عليه في وقت لاحق، فكان الهدف الأساسي من جلب مياه إضافية جنوباً على الجانب الغربي من فروع الفرات هو ري الأراضي الزراعية الواقعة حول أور وإريدو، وكذلك تحسين سُبُل النقل بالقوارب أو تحويل مياه الفيضانات الموسمية بعيداً عن بورسيبا وبابل. ومن شبه المؤكد أن بعض القنوات التي ستمها الملوك البابليين في المصادر المسبارية كانت عبارة عن تمديدات وتوسعات لمسارات مائية سابقة، ومن الجائز أن تكون كل الإشارات في الأساس إلى القناة نفسها.

توجد ثلاثة أصول محتملة لكلمة «أبكالاتو». يربطها الباحثون الآن بالكلمة اليونانية «بلوكاتو» (pallakottas) كما ذكرها الكتاب الرومان. وهذا يعني تبديل حرفين ساكنين في النسخة البابلية

لتتحول «أبكالاتو» إلى «أبلاكاتو»، والأخيرة يرتبط جذرها بكلمة تعني «تقسيم، انقسام». وهذا من شأنه ربطها باسم الفلوجة، ما يعني أن موقع مدينة الفلوجة الحديثة كان تقريباً النقطة التي تم فيها تحويل المياه من نهر الفرات إلى القناة. لكن يعتقد بعض الباحثين أن موقع الفلوجة أبعد شمالاً من موقع بداية القناة، مفضلين نقطة تبعد مسافة قصيرة إلى الشمال عن سيار (زمير). يتعلق أصل الكلمة الثاني بالحكاء الذين تظهرهم الرسومات الفنية في صورة نصف سمكية نصف بشرية، مخلوقات بدائية حكيمة جاءت من أبزو جالبة معها فنون الحضارة للبشرية، ما يعني أن السوماريون اعتبروا الأهوار جزءاً من أبزو التي اعتقدوا أنها مصدر المياه العذبة على سطح الأرض. وبما أن إله المياه إيا (أو إنكي في السومرية) كان أيضاً إله الحكمة بالإضافة إلى كونه الإله الخاص لشعوب القطر البحري، فيمكننا استنتاج وجود رابط خاص بين القطر البحري وفكرة الحكمة.

راق للبابليين اللعب بالكلمات وجذور الكلمات، لذلك فمن المحتمل أنهم كانوا على دراية بالأصلين المذكورين للكلمة في العصور القديمة. حتى الخيار الثالث لأصل كلمة «بلوكاتو»، أي معنى «البقرة الكبيرة»، يمكن التسليم به إذا تذكرنا أن الحكمة كانت تُعتبر أنثى في بعض السياقات، وأن رأس البقرة كان يتمتع، على أختام نوزي على سبيل المثال، بأذنين كبيرتين كعلامة على الحكمة، حيث أن كلمة «هيسيسو» كان لها معنيان: «أذن» و«حكمة». وقد نشأ العديد من الفنون والأشكال المؤسسة للحياة المتحضرة في بيئة القطر البحري.

وعودةً إلى قصة الإسكندر، فقد نُصح الملك البطل بينما كان عائداً من مغامراته في الشرق بعدم دخول من بابل من الناحية الشرقية، إلا أنه وجد دخولها من الغرب مستحيلاً بسبب المستنقعات فتجاهل مشورة العرّافين ليصل إلى العاصمة الكبرى من الشرق ويموت بعد ذلك بوقت قصير. ويشير وجود قناة



الشكل ١.٤. خريطة مبدئية لبابل توضح الخطوط والمواقع المقترحة لبعض القنوات والأنهار والمدن.

إلى غرب الفرات من العصر البابلي القديم وحتى زمن الإسكندر (مع الترميمات والتجديدات) يشير إلى تفضيل الأهوار على الأراضي الزراعية في المنطقة الواقعة حول بورسييا بهدف حماية مدينة بابل والمناطق الداخلية الزراعية من الفيضانات، خاصة بحلول عصر نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥-٥٦٢ ق.م.). أظهرت أعمال التنقيب التي قام بها روبرت كولدوي أن المباني الموجودة فوق تل القلعة الرئيسية في ذلك الوقت كان يجب أن يُعاد بنائها بصورة متكررة، مع رفعها عن مستوى الأرض بما يصل إلى سبعة أمتار. كما أُقيم حاجز ضخم للحيلولة دون تآكل جانب القلعة. كان من الأهداف الرئيسية لبناء القنوات إذن السيطرة على الفيضانات حول مدينتي بابل وبورسييا، وقد أدى ذلك في الغالب إلى وصول المزيد من المياه إلى الأهوار. إلا أن الأمر لا يخلو من الحيرة والخلاف حول مسار قناة بلوكاتو، مما يدفع إلى افتراض أن أجزاء مختلفة منها اتخذت تسميات مختلفة في أزمنة مختلفة.

اختيار موقع خاركس سباسينو أو إسكندرية نهر دجلة

عندما ظهر أرشيف من ألواح النصوص المسماة من الأسرة الأولى في القطر البحري، يعود تاريخه إلى منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد، سرت شائعات بمجيء الألواح من منطقة العمارة. وقد تشكّكت في البداية في موثوقية ذلك المصدر، إلا أني الآن، ومع التركيز الجديد على خاركس سباسينو، أدركت إمكانية مقارنة تلك الشائعات للحقيقة. فأسماء الأماكن المذكورة في تلك النصوص (Dalley 2009) عُرفت في بعض الحالات بقربها من نفر (نيبور): منطقة دجلة الواقعة جنوب نيبور والتي سكنتها قبيلة بوخودو وكان أفرادها يذهبون إلى نيبور للاحتفال بالأعياد، وفقاً لنص من نيبور من القرن الثامن قبل الميلاد (Cole 1996: nos. 27 & 46)، والمنطقة الجنوبية بالقرب من ميناء خاركس سباسينو، التي ذكرها بلييني في كتاب التاريخ الطبيعي (Pliny [1969]: 31.1.138) كموقع لبلدة قديمة تسمى دورينة. ويقترح هرتسفيلد (Herzfeld 1968: 9) أن دورينة تشويهاً لاسم دور إنليل. واسم المكان الأكثر تكراراً في نصوص أسرة القطر البحري الأولى هو دور إنليل - إلا أنه من غير المؤكد إذا كان دور إنليل ودور إنليلة هما تهجستان مختلفتان لاسم نفس المكان أم لا (Nashef 1982: 90-91). أما بالنسبة لإسكندرية نهر دجلة، فإن العديد من الأماكن التي أسسها الإسكندر والملوك السلوقيون كانت مدناً قديمة تم تغيير أسماءها لتناسب الحكام الجدد، على سبيل المثال دورا أوروبوس (دامارا)، سلوقية نهر دجلة (أوبيه)، أفاميا (نيا)، سلوقية نهر تيري (سوسة).

تؤكد مصادر إغريقية أن الإسكندر أسس الإسكندرية الجديدة قبل وفاته بفترة قصيرة، وكان ذلك لعدة أغراض: بناء سفن قادرة على الإبحار في الخليج لاستكشاف الساحل العربي بما في ذلك جزر فيلكا والبحرين، والربط بين الطريق الملكي إلى سوسة وبابل، سواء ما كان ذلك عن طريق البر أو عبر القناة أو النهر أو بخليط من تلك السبل. قديعني هذا أن الربط لم يكن موجوداً من قبل، ولكن الاستنتاجات التي تم التوصل إليها فيما يخص الألفية الثالثة قبل الميلاد، والتي ترجح إمكانية السفر على المياه من أور ولارسا إلى سوسة، تجعل ذلك الاحتمال مستبعداً. فقد نُقل الخشب اللبناني من بابل إلى سوسة في العصر الأخميني، كما تخبرنا كتابات داريوس الأول (حكم ٥٢٢-٤٨٦ ق.م.)، ما يشير إلى وجود مستوطنات على قدر من الأهمية على طول ذلك الطريق، فقد كان لابد من وجود حاميات لتأمين القوارب من الغزو، والموانئ المتقاربة لتسهيل التجارة وجمع الضرائب.

يثير اقتراح هرتسفيلد بأن موقع المدينة التي أسسها الإسكندر لم يكن بكرة، بل بُني على موقع حامية بابلية قديمة في دور إنليل (ة)، احتمال وجود ميناء رئيسي على نهر دجلة يعود إلى منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد. ويعني هذا أن خط الساحل في الخليج كان منذ ذلك الوقت على مقربة من تقاطع نهر كارون مع نهر دجلة، ولم يتحول لاحقاً عندما بُنيت خاركس [كا هو شائع] (Gasche & Tanret 1998: 27). وقد تركزت القوات الكارانية بعد ذلك التاريخ بوقت طويل في نفس ذلك الموقع، وكان رجالها - الذين كانوا في الأصل تحت قيادة سايلاكس، قائد بحرية داريوس الأول - يمتلكون مهارة بناء السفن وإصلاحها. كتب بليني أن الإسكندرية الجديدة، خاراكس، سكنها كارانيون من القلعة الملكية، باسيلوس تيكوس التي سُميت في اليونانية «دورينة». وكثيراً ما ذكرت نصوص موراشو التي عُثر عليها في نيبور وجود كارانيين يعيشون في المنطقة خلال العهود الأخمينية الأخيرة، وقد جاء بعض هؤلاء من مصر وليس من كاريا مباشرة. وعن طريق تتبع وجود الكارانيين في جنوب بلاد الرافدين من الفترة الأخمينية إلى وقت الإسكندر، يمكن استنتاج وجود فصيل مهم من السكان في القطر البحري وقت تأسيس الإسكندرية الجديدة.

في النصوص البابلية تشير أسماء الأماكن التي تتكون من كلمة «دور»، ومعناها سور أو حصن، متبوعة باسم ملكي أو مقدس، إلى تقاطع مسارين مائين، وهي بالطبع مواقع استراتيجية حيث يمكن منها حماية التجارة وجمع الضرائب ورصد أي تحركات غير عادية.

وكان موقع دور إنليل (ة) «سور/ جدار إنليل» (بصيغة جمع من الواضح أنها مقصودة) مهماً في عصر سلالة القطر البحري الأولى (حوالي ١٥٠٠ ق.م.) وفي الفترة الكيشية التي تلتها (van Soldt 2013). وفي أرشيف أسرة القطر البحري الأولى الموجودة في أرشيف شوين، كانت أهمية المكان كافية ليأتي ذكره تحت العام المسمى H في عهد أياداراجالاميه (؟) عندما أعاد الملك بناء «الأوسوكو» القديم، وهي كلمة تم مؤخراً فقط اكتشاف أنها تشير إلى محطات المياه في استخدام مجازي للمعنى الأساسي الذي يعني خد الإنسان أو وجنته (كتاب لدالي، لم يُنشر بعد). كما توجد ألواح تنتمي لنفس الفترة تقريباً عُثر عليها في نيبور ويوجد بها ذكر لأراضٍ زراعية يتم رعيها [من قناة] نامجار دور إنليل.

يمكننا إذن افتراض أن يكون الإسكندر، رغبة منه في تحسين ورصد حركة التنقلات بين بابل وسوسة وأيضاً في تأسيس قاعدة بحرية يمكنه منها استكشاف الساحل العربي للخليج، قد قام بهذا الاكتشاف في دير إنليل: «حامية ملكية» عمرها عدة قرون تشغل بالفعل موقعاً استراتيجياً كمدينة بميناء نهري، ليشيد فوقها أكبر إسكندرياته وآخرها.

مراجع

- Boiy, T. and K. Verhoeven. 1998. Arrian, Anabasis VII.21.1.4 and the Pallukkatu Canal. Pp. 147–58, in Gasche, H. and M. Tanret, eds. *Changing Watercourses in Babylonia. Towards a reconstruction of the ancient environment in lower Mesopotamia*. vol.1. MHE series II Memoirs V. Chicago: The Oriental Institute; Ghent: University of Ghent.
- Cole, S.W. 1994. Marsh formation in the Borsippa region and the course of the lower Euphrates. *Journal of Near Eastern Studies* 53: 81–109.
- . 1996. *The Early Neo-Babylonian Governor's Archive from Nippur*. Nippur IV. Chicago. OIP 114.

- Dalley, S. 2009. *Babylonian Tablets from the First Sealand Dynasty in the Schoyen Collection*. CUSAS 9, Maryland: CDL Press.
- . forthcoming. The First Sealand Dynasty: Literacy, economy, and the likely location of Dūr-Enlil(ē) in southern Mesopotamia at the end of the Old Babylonian period.
- Edzard, D.-O. & Farber, G. 1974. AB.GAL. Pp. 252–3 in *Répertoire Géographique des Texts Cunéiformes* Band 2. Wiesbaden: Dr.Ludwig Reichert.
- Hansman, J. 1967. Charax and the Karkheh. *Iranica Antiqua* 7: 21–58.
- Herzfeld, E. 1968. *The Persian Empire. Studies in the Geography and Ethnography of the Ancient Near East*. Wiesbaden: F.Steiner Verlag.
- Heyvaert, V.M.A., P. Verkinderen and J. Walstra. 2013. Geoarchaeological research in lower Khuzestan: State of the art. Pp. 493–534 in K.de Graef & J.Tavernier eds. *Susa and Elam. Archaeological, Philological, Historical and Geographical Perspectives*. Leiden: Brill.
- Nashef, Kh. 1982. *Répertoire Géographique des texts cunéiformes* Band 5. Wiesbaden: Dr. Ludwig Reichert.
- Pliny. *Natural History*. Book 6, translated H. Rackham (1969), Loeb edn.
- Potts, D.T. 1999. Elamite Ula, Akkadian Ulaya, and Greek Choaspes: A solution to the Eulaios problem. *Bulletin of the Asia Institute* 13: 27–44.
- Van Soldt, W. 2013. *Middle Babylonian Texts in the Cornell University Collections 1. The Later Kings*. CUSAS 30. Maryland: CDL Press.

ما قبل البصرة: ميناء خاركس سباسينو

ستيوارت كامبل، ستيفان هاووزر، روبرت كيليك، جين مون^١

كانت البصرة دومًا مدينة بحرية، ازدهارها مضمون بحكم موقعها على رأس الخليج العربي. جال بحارتها وتجارها - إبان العصر العباسي - بطول الخليج العربي والمحيط الهندي وعرضهما بحثًا عن البضائع والربح، وجلب عليهم النجاح ثروات عظيمة إذ بلغ الدخل السنوي لبعض تجار البصرة في ذلك الوقت ما يربو عن المليون درهم - أي ما يعادل ٢٥٠ ألف دولار اليوم (Hitti 1996: 132-3). لكن ماذا عن الأزمنة المبكرة؟ عندما كانت الأرض هناك لا تزال مغطاة بمياه الخليج؟ حدد المؤرخون وعلماء الآثار مدينتين في الشمال، كانتا - في أيام مجدهما - على قدر من الثراء والرخاء ماثل للبصرة؛ مدينة الفرات التي كانت - خلال القرون التي سبقت الإسلام مباشرة - الميناء الرئيسي للبضائع البحرية وتقع آثارها على بعد ٣٥ كيلومترًا شمالي البصرة. وبالقرب منها موقع مدينة أقدم وهي خاركس سباسينو.

خاركس سباسينو - حصن هي (سباسين) وتعرف في المصادر الآرامية والعربية باسم كرخ ميسان - هي عاصمة ميسان وأهم مرفأ بالخليج بداية من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى السادس بعد الميلاد. أسسها الإسكندر الأكبر، ثم جُرفت جزئيًا بفعل الفيضانات وأعيد تأسيسها على يد أنطيوخوس الخامس إيوباتور في حوالي سنة ١٦٥/١٦٦ قبل الميلاد، حتى أغرقها الفيضانات مرة أخرى. وسميت المدينة الجديدة هيسباسين، على اسم الحاكم السلوقي السابق (أو «ساتراب» ولاية البحر الأحمر) والذي استقل بالمدينة سنة ١٤٠ قبل الميلاد. وبعد هزيمته على يد الملك الأشكاني ميرثريداتس الأول، أصبحت خاركس عاصمة مملكة ميسان - الولاية الجنوبية من ثلاث ولايات أشكانية تقع داخل ما يعرف اليوم بالعراق - وكانت «ملتقى تجار الشرق»^٢. كما ظلت خاركس - طوال الفترة الأشكانية ومعظم الفترة الساسانية - محل إقامة الملك، والملك هو الحاكم المحلي التابع لملك الملوك في قسيفون، وحكمها - أغلب ذلك

١ يدعم العمل على خاركس سباسينو كل من بارون لورن ثايسين - بورتميزا ومؤسسة أوغسطس، والسفارة البريطانية بالعراق والمعهد البريطاني لدراسة العراق، وبداية من ٢٠١٧، بدأ الفريق باستقبال منحة من صندوق حماية الثقافة الذي تموله وزارة الرقميات والثقافة والإعلام والرياضة البريطانية من خلال المجلس الثقافي البريطاني. ونود أن نعبّر عن امتناننا أيضًا لمجموعة إس كي إيه لتقديمهم الدعم الفني بالعراق، المشروع هو شراكة بين جامعة مانشستر وجامعة كونستانس، والهيئة العراقية العامة للتراث والآثار. كما قام الأستاذ جروج فاسبيندر بجامعة لودفيج - ماكسيميليان ميونيخ مسح قياس المغناطيسية في ٢٠١٦. ونود أيضًا أن نشكر موظفي الهيئة العامة للتراث والآثار على دعمهم، خاصة أستاذ قحطان العبيد، مدير متحف البصرة، والذي دلنا على خاركس سباسينو وشجعنا على العمل هناك. وتمدت شكرنا إلى أعضاء فريقنا خلال الموسمين الأوليين على مهنتهم الصامدة في وجه الظروف الجوية من حرارة وغيرها: أحمد عبد الله المموري، ود مارتن جروبر، وعبد الرزاق خادم، ود سيمون مول، وأدريان ميرفي، ود ماري شيرسون، وفاي سلاتر، وروزيلاند واد-هادون.

٢ هكذا كانت تسمى ميسان في «نشيد اللؤلؤة» وهو قصيدة سريانية من القرن الثالث الميلادي، أدرجت لاحقًا في «أعمال توماس» والتي كانت نصا عن مهمة الرسول يهوذا توما، واعتبرت ملفقة في القرن السادس، انظر على سبيل المثال Schuol 2001: 165-7 مع المزيد من المراجع.



الشكل ١.٥. لا تزال أسوار مدينة خاركس لا تزال موجودة بارتفاعات ملحوظة.

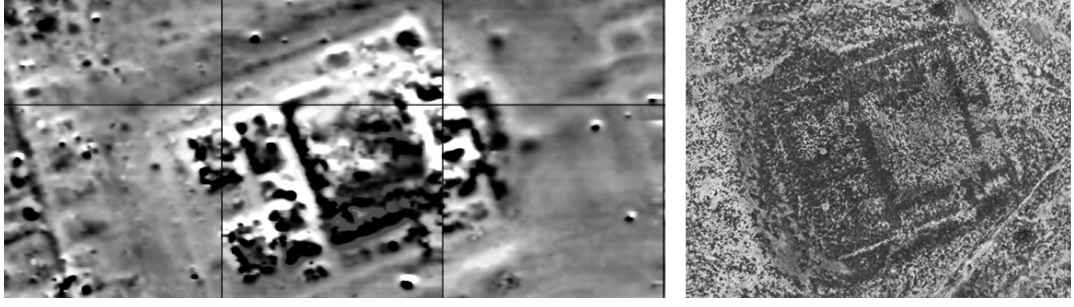
الوقت - أفراد من العائلات المالكة المتعاقبة. وبحكم موقعها عند ملتقى نهري دجلة و كارون،^٢ كان مينائها محطة للتجارة بين الهند و بابل التي كانت القلب الاقتصادي لإمبراطورية الأسرة الأشكانية في فرثيا، كما سهلت التجارة مع منطقة البحر المتوسط وبالأخص عبر تدمر.

الإسكندرية، أنطاكية (أنطيوخية)، خاركس سباسينو، كرخ ميسان، وربما أيضاً أسترآباد أردشير - جميعها أسماء حملتها المدينة في سالف العصور بشكل يعكس تنوع الإمارات والإمبراطوريات التي سعت إلى السيطرة عليها. تاريخ المدينة موثق

جيداً في المراجع القديمة، بداية من المؤلف الروماني پليني الأكبر الذي يصف نشأة المدينة (Pliny [1969]: 31.138-9) وحتى العالم الفارسي الطبري الذي سجل مقتل آخر حكامها في أحد المعارك (Bosworth 1999: 13-14) غير أن موقعها ظل لغزاً حتى خمسين عاماً مضت واكتشاف آثارها لم يبدأ إلا خلال عام ٢٠١٦.

لا تزال أسوار خاركس سباسينو إلى اليوم تهيمن على السهل الترابي المنبسط، وهي العلامة الوحيد التي يمكن رؤيتها بجانب الأعمدة المضيئة لأبار النفط المجاورة (الشكل ١.٥). كان ارتفاع هذه الأسوار هو مصدر معاناتها في الكثير من الأوقات؛ فنظراً لقرب المدينة من الحدود مع إيران، لم يتمكن المخططون العسكريون للحرب العراقية الإيرانية من مقاومة إغراء استخدامها كتاريس دفاعية. والأدلة على ذلك ماثلة في أنحاء المكان: مواضع للدبابات محفورة داخل الأسوار، ومخابئ الداخلية تم إخلاؤها للمخيمات العسكرية، بينما تتبعثر كميات كبيرة من أغلفة القذائف الفارغة ومواد أخرى هنا وهنا وتتآكل ببطء بفعل الصدأ داخل التربة المالحة. كما تسبب القرب من إيران في اعتبار المنطقة محظورة على علماء الآثار وغيرهم من الزوار في الجزء الأكبر من العقود الأخيرة. ولم تسلم البقايا الأثرية أيضاً من الآثار السلبية للعوامل المناخية، فحتى منتصف القرن العشرين غُمرت المنطقة بالماء بشكل منتظم بسبب الفيضانات السنوية من الأنهار القريبة مما تسبب في تجريف الآثار في بعض المناطق وترسيب طبقات من الطمي في مناطق أخرى. وتقع اليوم أول مدينة مترين أو أكثر تحت سطح الأرض الحالي. ولم تكن عوامل التعرية أيضاً بالأمر الهين، فقد تسببت شمس الصيف اللاهبة متبوعة بالرياح والأمطار في تكوين ثم محو قشرة خارجية على سطح التربة المرة تلو الأخرى. ولذلك فلم يكن من المستغرب أن يظن أول عالم أركيولوجي وجد آثار خاركس سباسينو أنه لم يبق هناك ما يثير الاهتمام داخل تلك الأسوار (Hansman 1967).

٣ عن تغيير مسارات نهري كارون والكرخة، انظر Heyvaert et al. (2013).



الشكل ٢.٥. التنقيب الجيوفيزيائي (إلى اليسار) وصورة من الطائرة المسيرة (إلى اليمين)، يقدمان وسائل تكاملية للكشف عن المباني المدفونة، ويظهر هنا مبنى ٢.

بدأ فريقنا من علماء الآثار من بريطانيا والعراق وألمانيا العمل في ربيع ٢٠١٦ بشيءٍ من الوجل، فلم يكن لدينا فكرة حقيقية عما قد نجده. كانت أهدافنا الأولية بسيطة؛ رسم خريطة للموقع على مساحة تقارب خمسة كيلومترات مربعة، وتحديد مدى وعمق البقايا الأثرية الموجودة من خلال تنقيب جيوفيزيائي وحفر محدود. وتم رسم الخريطة عن طريق استخدام طائرة مُسيّرة (درون) طارت في مسار شبكي والتقطت أكثر من ١١ ألف صورة لسطح المنطقة كما هي الآن. جُمعت كل الصور لصنع موزاييك فوتوغرافي ضخم واستُخلصت منه الخرائط الهيكلية (الكونتورية) والمجسمات الرقمية التي أمدتنا بأدوات مهمة للمسح الذي نقوم به الآن؛

ووقع الاختيار على منطقة في الجزء الجنوبي للمدينة لإجراء التنقيب الجيوفيزيائي، قريبا من المكان الذي التقطت فيه الأقمار الصناعية صورًا لشبكة نهرية قديمة. فالأرض في هذا المكان لم تكن مُزدحمة بركام الحرب (وهو أمر مهم لأن المعادن تتداخل مع الإشارات المغناطيسية)، كما كان قد تم العثور على عدد معقول من الأنية الفخارية والأثرية على السطح هناك.

وجاء العمل اللاحق ليكشف عن المربعات السكنية الكاملة المُكوّنة للمدينة والتي وُجدت فيها المباني بكثافة عالية. ونظرًا لانتظام التخطيط الشبكي للمدينة يمكننا الافتراض أن تصميمها تم وفقًا لمعايير التخطيط الهيلنستي، ومن ثم يمكن استنتاج أن هذا هو تخطيط المدينة وقت نشأتها. وإذا كانت القياسات صحيحة، فالمربعات السكنية التي يظهرها القياس المغناطيسي، والتي تبلغ أبعادها حوالي ١٥٦ × ٨٥ مترًا، تُعتبر ضمن أكبر المربعات السكنية لمدينة العالم القديم، فحجمها يتجاوز حتى حجم مربعات العواصم السلوقية السابقة؛ فقياسات المربعات السكنية لسلوقية المظلة على نهر دجلة هي ١٤٤,٧ × ٧٢,٣٥ مترًا، أي ما يعادل ٥٠٠ × ٢٥٠ قدم بالقياس الأيونية - الأتيكية (Gullini 1967)، وتلك الخاصة بأنطاكية المقامة على ضفة نهر العاصي كانت ١١٥,٨ × ٥٧,٩ مترًا أي ما يعادل ٤٠٠ × ٢٠٠ قدم (Downey 1963: 22; De Giorgi 2016: 61). أما بالنسبة للمباني المنفردة البارزة التي يظهرها المسح فهي تعود في الغالب إلى عصر لاحق على ذلك بقليل، ويحيد واحد منها على الأقل عن التنظيم الشبكي للمدينة وتظهر المساحة حوله أنها أُخليت من هياكل الأساسات السابقة قبل إنشائه، كما هو مبين في (الشكل ٢.٥).

٤ طارت الطائرة المسيرة على ارتفاع ١٠٠ متر في مسار شبكي من خلال برنامج نظام تحديد المواقع مثبت على الطائرة، تم تغطية مربعات عمرانية تبلغ ٥٠٠ متر في ٥٠٠ متر في كل رحلة جوية، والتقطت صور رأسية بنسبة تداخل بلغت ٨٠٪، تم تغطية ١٢ كيلومترًا مربعًا بهذه الطريقة، أي بشكل يغطي مساحة المدينة وجزء من الأرض حولها. تم إنشاء ستين نقطة تحكم أرضية مؤقتة باستخدام نظام تحديد المواقع عالي الدقة، بدقة تصل إلى +/- ٧ سم. لاحقًا، تم رسم خرائط باستخدام برمجيات تجارية (AgiSoft PhotoScan Pro). أقصى دقة وضوح للموزاييك الصوري هي ٥ سم لكل بيكسل.

وامتد المسح جنوباً إلى حافة مجرى نهر قديم تسبب في تآكل البقايا الأثرية في ذلك الجزء من المدينة. وهذا ما تؤكدته نتائج الحفر الاختباري الذي تم على مجرى النهر، فالترسيبات المائية تشير إلى فيضانيين كبيرين على الأقل، في تذكير واضح لصراع سكان خاركس سباسينو الدائم مع مياه فيضانات الأنهار القريبة.

أظهرت قراءات المسح المغناطيسي بوضوح وجود هياكل أثرية ضخمة تحت الأرض، لكن كانت هناك حاجة لتأكيد هذه النتائج من خلال إيجاد بقايا أثرية مادية، وعليه قررنا الحفر بحذاء الجدران الخارجية لمبنيين أظهرهما المسح (مبنى ١ ومبنى ٢) وعبر أحد المعالم الخطية التي تحد القطاعات السكنية للمدينة. وأظهر خندقان كشفان بجوار البنائيتين عن وجود جدران في نفس أماكن العلامات التي أظهرها المسح لكن بتكوينات مختلفة، فالمبنى ١ مربع الشكل وبلغ طوله ٤٥ متراً، باحته الرئيسية أرضيتها من الطوب الطيني تحيطها جدران من القرميد، خلافاً للمبنى ٢ والذي صُنعت جدرانه الخارجية من الطوب الطيني بينما بُلّطت أرضية باحته الداخلية بالقرميد، هذه الباحة بها صف واحد من الغرف على ثلاث جوانب ومدخل محتمل تجاه الحائط الشمال-شرقي.

وكشف الحفر عبر المعالم الخطي الذي يحد أحد القطاعات السكنية عن أمر محير: حائطان متوازيان - هما على الأغلب حدان لمربعين سكنيين متجاورين - لكن ما كان غريباً وعصياً على الفهم هو ما عُثر عليه بينهما. فقد وجدنا سبع جرار تخزين مقلوبة ومصفوفة على طول الجزء الجنوبي لمصرف موجود على حافة المربع السكني (الشكل ٣.٥ في الصفحة التالية). يزيد طول كل جرة عن المتر، وهي رفيعة بجوانب شديدة الاستقامة، قممها غير بارزة وقواعدها مستدقة الطرف بشكل طفيف. في حالتها الأصلية تكون



الشكل ٣.٥. صف من جرار تخزين مرصوص رأساً على عقب على الأرض.



الشكل ٤.٥. وعاء مطلي ثلاثي القوائم (ارتفاعه ١٤ سم).

تلك الجرار مبطنة بطبقة قار مضادة للماء ويكون الغرض هذه الأوعية هو حفظ السوائل كالنبيذ، إلا أنها في هذه الحالة وُجِدت وقد قُطعت قواعدها بعناية، وصُنِفَتْ في خط واحد رأسًا على عقب فوق طمي جاف. في ظننا، أن هذا التكوين كان جهاز صرف من نوع ما، لكن لا زال الأمر لغزًا. وعلى مقربة من هذه الجرار، وجدت أوعية تخزين أكبر ذات أشكال مختلفة وبعضها كان أيضًا معدّل بحرص.

وبالطبع عثرنا على آنية فخارية بوفرة سواء على السطح أو داخل الخنادق الكشفية، ومن ضمن ما عثرنا عليها نوع من الآنية الفخمة ذات شكل أنيق وتصميم بارع وسطح مصقول (الشكل ٤.٥). حال الطلاء الآن إلى الأبيض أو الأصفر لكن لونه الأصلي كان أخضر لامعًا، هذا وقد عثر المنقبون على هذا النوع من الآنية الفخارية في مواقع التنقيب بالخليج وافترضوا أن منشأها هو ورش العمل غير المكتشفة حتى تلك اللحظة في خاركس سباسينو. وهي مُصنّعة بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول بعده (Salles 1990).

جاءت بقايا أواني زجاجية فاخرة كدلائل إضافية على ثراء المدينة الناشئ من أنشطة التجارة، كما دلت عليه خرزة قرصية الشكل ذات لون برتقالي داكن مخصب بدوائر من الأبيض المضرب، صُنعت من نوع معين من العقيق الذي لا يزال يثمن محليًا حتى اليوم (الشكل ٥.٥). ولا تبرز مظاهر الفخامة في الإرث المعماري فقط من حجم مخططات البناء لكن أيضًا من قطع الأحجار الكبيرة المنقوشة وبقايا الأعمدة والتي ظهرت إلى السطح بفعل العمليات الحربية الحديثة، كما عثرنا على مكعب زجاجي وحيد مقطوع بمهارة كبيرة، كان غالبًا جزءًا من موزاييك متلألئ في يوم من الأيام.



الشكل ٥.٥ (أعلى): فص عقيق (قطره ٢٩ مم).

الشكل ٦.٥ (يميناً): بقايا حجر منقوش.

مثلت خاركس سباسينو في غابر الأزمنة نقطة وصل بين المناطق الحضرية البابلية والهند، وسهلت لقرون عديدة تجارة السلع الفاخرة بين الصين والهند وبابل وشرق المتوسط. وتدفع النتائج الأولية المشجعة التي توصل إليها فريقنا في اتجاه إلحاق المسح بمشروع كبير متعدد التخصصات لدراسة هذا المركز الاقتصادي والسياسي الهام.

مراجع

- Bosworth, C.E. (ed.). 1999. *The History of Al-Tabari, Vol. V: The Sasanids, the Lakhmids, and Yemen*. Albany, NY: SUNY Press.
- De Giorgi, A.U. 2016, *Ancient Antioch: From the Seleucid Era to the Islamic Conquest*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Downey, G. 1963. *Ancient Antioch*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Gullini, G. 1967. Un contributo alla storia dell'urbanistica. Seleucia sul Tigri. *Mesopotamia* 2: 135–63.
- Hansman, J. 1967. Charax and the Kharkhe. *Iranica Antiqua* 7: 21–58.
- Heyvaert, V., P. Verkinderen and J. Walstra, 2013. Geoarchaeological research in Lower Khuzestan: state of the art. Pp. 493–534 in K. De Graef and J. Tavernier (eds.), *Susa and Elam. Archaeological, Philological, Historical and Geographical Perspectives*. Leiden: Brill.
- Hitti, P.K. 1996 reprint. *The Arabs: A Short History*. Washington, DC: Regnery Publishing.
- Pliny. *Natural History*. Book 6, translated H. Rackham (1969), Loeb edn.
- Salles, J.-F. 1990. Questioning the BI-ware. Pp. 303–34 in Y. Calvet and J. Gachet (eds.), *Failaka, fouilles françaises 1986–1988, Travaux de la Maison de l'Orient*, 18. Lyon: Maison de l'Orient et de la Méditerranée Jean Pouilloux.
- Schuol, M. 2001. *Die Charakene. Ein mesopotamisches Königreich in hellenistisch-parthischer Zeit*. Oriens et Occidens 1. Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 2000.

أرض مهسان وما وراء البصرة في العصور القديمة المتأخرة

سينجون سيمبسون

مقدمة

بلغ التطور الزراعي والعمراني بجنوبي العراق حده الأقصى من التقدم والتعقيد بحلول أواخر العصور القديمة امتدادًا من العصر الساساني وحتى بدايات العصر الإسلامي. ويظهر الجزء الشمالي بكثافة في كتابات التلمود البابلي (الجمارا) ما يمدنا بقدر هائل من المعلومات عن الحياة هناك في ذلك الوقت (Simpson 2015). شكّل القمح والشعير والتمر محاصيل الغذاء الرئيسية كما كان الحال في الألفيات التي سبقت ذلك، وعلى الرغم من سيطرة زراعة التربة على المشهد إلا أنه لا يمكن إغفال أهمية الاقتصاديات الأخرى، فالخراف والماعز والأبقار كانت أهم أنواع الماشية وشكلت مصادراً للمنتجات الثانوية، كما جعلت المحاصيل اللينة من صناعة النسيج نشاطاً مستداماً، وكان الصيد بالطبع ركناً هاماً في اقتصاديات الغذاء في المناطق النهرية وأقصى الجنوب. وتشير المسوحات الأركيولوجية إلى أن المنطقة بأكملها كانت مغطاة بالقنوات التي ربطت بين دجلة والفرات وروافدهما في نظام دقيق للمواصلات وتوفير المياه (Adams 1981). ومضى النمو الريفي والحضري يدًا بيد، فاعتمد كل منهما على الآخر ونما، وهناك أدلة مطابقة من خوزستان الغربية (Adams 1962; Eqbal 1976: 116, table 20, fig. 49; Walstra, Heyvaert and Verkinderen 2010) ومن سوسيان (Wenke 1975/76; Moghaddam and Miri 2003: 103–5) وسهل دهلران (Neely 1974). وشهدت بوشهر والمناطق الداخلية المجاورة لها - خلال الفترة نفسها - حركة توطين مكثفة ماثلة (Carter *et al.* 2006)، كما توجي نتائج المسوحات بحوض نهر كور ومناطق أخرى في فارس بنمط مشابه من تكثيف البناء، وتقدم أدلة على الاستغلال المتزايد للأراضي الهامشية (Hartnell 2014). وكان لتكثيف الزراعة العديد من الآثار البارزة على الاقتصاد الساساني، فقد زاد من قدرة استيعاب الأراضي للسكان ومن حجم وانتظام الإنتاج الزراعي، وكفل إمدادات وقود أكبر للصناعات الحرارية، وجلب أرباحاً متزايدة من خلال فرض الضرائب على المحاصيل. لذا لا بد وأن المناطق الخصبة كانت تعتبر أصولاً مهمة في نظر الدولة والأفراد على حد سواء، وليس من المفاجئ أن نجد الاستثمار يصبّ في تلك المناطق، ليس فقط من خلال أعمال هندسة المياه، ولكن أيضًا من خلال أعمال بنية تحتية حضرية وخطط مكثفة لتوطين الريف (Simpson 2017).

البيئة الطبيعية

تعاود السهول الرسوبية لبلاد الرافدين جزئياً المقاطعة الساسانية القديمة آشورستان (عرفت عند العرب لاحقاً باسم سواد العراق) والتي قسمت لاحقاً لمقاطعات أرض بابل وأرض كسكر وأرض ميسان (Morony 1982). وركزت أغلب الدراسات على الأدلة القادمة من المقاطعتين الأولى والثانية، وجزم أغلب العلماء المعاصرين بأن المقاطعة الثالثة الجنوبية غطتها الأهوار، ولذلك ليس لها أهمية تذكر. والآن تعيد هذه الورقة النظر في الأدلة الواردة من تلك المقاطعة الجنوبية. تبدأ الورقة باستعراض البيئة الطبيعية وكيف شكلت الاقتصاد في هذه المنطقة المهمة من العراق، يلي ذلك نقاش مختصر للأدلة التاريخية والأركيولوجية للعصور القديمة المتأخرة.

يتكون هذا الجزء من طرح النهر من مصبات أنهار دلتاوية تمتد إلى الخليج العربي وتمتد خلفها سهول طينية وبحيرات وأهوار. يميّز هذا الجزء ميله الضحل للغاية مع ارتفاع منسوب مياهه الجوفية، مما يجعل الأنهار وضفاف القنوات تفيض بسهولة، فيؤدي أي تغيير طفيف في منسوب المياه إلى إغراق المناطق المجاورة لنهري دجلة والفرات بشكل موسمي أو دائم، وتزداد احتمالية تغير المجرى من مؤقت إلى دائم خلال المراحل التي حدث فيها تغيير في مسار مجرى النهر أو تصدعات تكتونية مؤقتة، كما يمكن لأقل تغيير في مستوى البحر أن يكون له أثر كبير. وتشكل المساحة الأكثر انخفاضاً من الأهوار منطقة مصب النهر بين المد والجزر، حيث يرتفع وينخفض مستوى مياه النهر (المالحة جزئياً) مرتين يومياً بمعدل مترين تقريباً في شط العرب والجداول المجاورة. ويسهل ري سلاطات الشعير المقاومة للملوحة أو المتكيفة مع الملوحة، بالإضافة إلى أشجار النخيل والأرز، على طول القطاعات الضيقة من الأراضي المرتفعة بجانب الأنهار والجداول الرئيسية. ويعتبر القصب (*Phragmites communis*) هو المحصول التقليدي الرئيسي للأهوار، وينمو في جميع أنحاء المنطقة، وعادة ما يتم حصاده في فصل الصيف ثم يباع في بلدات الأسواق ليستخدم في البناء وصناعة البواري (الحصير). وقد استُخدمت البواري في المقام الأول في صنع الأكواخ والمصاطب، واستُخدمت أيضاً كغطاء للمحاصيل ومخازن للحبوب في الأكواخ والحقول. كما استخدم القصب في صنع الأثاث، وكان مصدراً هاماً للوقود، وكان يُستخدم أيضاً كعلف في الحالات التي يكون فيها طازجاً وعضواً. وتخصصت بعض القبائل في جمع القصب، وخلال القرن الماضي كانت المراكز المحلية لصناعة نسيج البواري هي قرى الجبايش والخرفية، ومنها كان يتم شحن البواري حتى البصرة وبغداد (Bawden 1945: 393; Salim 1962: 104-12). أما أعشاب البردي - والتي كانت تنمو فقط في هور الحمّار - فكانت تستخدم كعلف للجواميس ولربط أعواد القصب ولتعزير الأكواخ ضد الرياح. واستُخدم الملح بكثافة على الطرف الجنوبي لهور الحمّار، وكان يُستخرج عبر الآبار ثم يتم بيعه أو مقايضته، مقابل الحبوب أو الأرز أو ما غير ذلك، في القرى المجاورة وفي إقليمي العمارة والغراف (Salim 1962: 19-20). وبالإضافة إلى ذلك توافرت أراضٍ جيدة لرعي الإبل والأحصنة في المناطق المجاورة، وبحلول أواخر عام ١٩١٩ كانت المنتجات الخمسة الرئيسية التي تصدرها البصرة هي التمور والحبوب والصوف والجلود والخيول (Dowson 1921: 43).

ركزت معظم الدراسات التي تناولت منطقة الأهوار على قبائل معدان أو من يُطلق عليهم «عرب الأهوار» (Thesiger 1964; Thesiger and Maxwell 1958; Maxwell 1959; Young and Wheeler 1977;). كان هؤلاء عادة يسكنون أكواخاً من القصب، تتراوح أعدادها بين الثلاثين والخمسمائة (في كل مستوطنة)، بالقرب من الأنهار أو على التلال في مناطق الأراضي الرطبة الدائمة. (Ochsenschlager 2004).

وخلال موسم الفيضان كان يتم إنشاء مساكن صغيرة على مصاطب عائمة مصنوعة من القصب والبردي والرمل، أو على جزر قصب مرتفعة. واعتمد اقتصاد هذه القبائل على رعي جواميس الماء، والتي استخدمت ألبانها الغنية في صناعة السمن الذي ارتفعت قيمته في جميع أنحاء العراق لاستخدامه في الطهي. كما قام أفراد القبائل باصطياد الأسماك، وخاصة سمك الشبوط، وكذلك الطيور المهاجرة في فصل الشتاء، وخاصة البط والأوز، وذلك لاستهلاكهم المحلي. غير أنهم اعتمدوا على بلدات الأسواق المجاورة لسد معظم احتياجاتهم، بدءًا من الزوارق وأواني المياه والملابس ووصولًا إلى الحبوب والأرز.

كانت البصرة أكبر مدينة في المنطقة، ولكن على النواحي القبلية خلفها يقع عدد من بلدات الأسواق: العمارة وسوق الشيوخ وقلعة صالح والقرنة. كما وجدت أيضًا عدة قرى على أطراف المور الدائم تسكنها قبائل عربية مختلفة من ضمنها قبيلة بني حسن، بالإضافة إلى أعداد أصغر من قبيلتي الصلبة والمندائيين. وزرع هؤلاء القمح الشتوي والشعير على طول النهر وعلى ضفاف القنوات أعلى النهر، كما زرعوا الأرز (*Oryza sativa*) وذرة السورغم (*Sorghum vulgare*) في المناطق الواطئة في فصل الصيف توّ انحسار فيضانات الربيع. تعتمد زراعة الأرز الناجحة على الإمداد المستمر بالمياه ومن هنا يأتي رواجها في هذه المنطقة. وزرع سكان الأهوار أيضًا الذرة البيضاء (*Panicum*) كمحصول صيفي، خاصة على طول شط الحلي، وهي عبارة عن صنف مقاوم بشدة للجفاف وقادر على طرح كميات كبيرة من المحصول في المناطق الخالية من العشب، وشكّل المحصول الصيفي الوحيد المعروف من جنوب العراق. بالإضافة إلى ذلك كان يتم زرع الخضروات وتربية الأبقار الحلوب، ولا سيما بالقرب من نهر دجلة.

وأخيرًا، تألفت مجموعة سكانية أخرى مهمة من البدو الذين اعتادوا السكنى في الأراضي الرطبة على أساس موسمي قبل الانتقال إلى الصحراء الجنوبية أو التلال السفحية جنوب غرب إيران لاستغلال مناطق الرعي الرتيانة هناك. فقبل فرض الحدود الحديثة كانت الحركة مستمرة بين الأراضي الواقعة داخل الحدود الحديثة للعراق وإيران والكويت. وفي منطقة شمال شرق العمارة اعتاد بنو لام نقل قطعانهم في الصيف إلى التلال الإيرانية (Drower 1940: 371)، وحتى وقت ليس بالبعيد - سبعينيات القرن العشرين - اعتاد بدو حديج على قضاء الشهور من أغسطس/آب إلى يناير/كانون ثاني في منطقة الأهوار قريبًا من تلؤل الهبا جنوبي العراق «حيث يتسبب انحسار الأهوار في توفير المراعي لقطعانهم»، ولكن «عندما تبدأ الأهوار بالتمدد مرة أخرى بسبب أمطار الشتاء وزيادة استخدام ري القنوات والذي يصب في الأهوار، ينتقل بدو حديج جنوبًا إلى الكويت والصحاري الكبرى في الأراضي السعودية، حتى يعودون مرة أخرى إلى هذه المنطقة في العراق في شهر يوليو/تموز أو أغسطس/آب خلال الجزء الأكثر حرارة من الصيف» (Ochsenschlager 1974: 162-3). ووصف ديكسون (Dickson 1949: 545-9) هذه التنقلات بتفاصيل أدق مفرقًا بين القبائل المختلفة، مثل قبيلة الزبيرية وهي قبيلة من البصرة القديمة، وقبيلتي زوبع والرفيعات من حلف شمّر، وقبائل البو صلاح والأجود وبني مالك من حلف المنتفق. وكانت كل تلك القبائل ترعى الغنم، فكانت تغادر حوض الفرات في منتصف شهر أكتوبر/تشرين أول من كل عام لتسافر إلى جانبي وادي الباطن: «خلال شهري فبراير/شباط ومارس/آذار تغطي قبائل الرعاة كامل المنطقة الواقعة جنوب وغرب الكويت» ولكنهم كانوا يعودون إلى الشمال «عادة بحلول نهاية شهر أبريل/نيسان أو أوائل شهر مايو/آيار عندما تصبح المياه شحيحة ويكون على الأغنام أن تعود إلى نهر الفرات قبل أن يجف عشب الصحراء» (Dickson 1949: 547). وكان بدو المنطقة يستقبلون هؤلاء الوافدين بحفاوة «نظرًا لأنهم يجلبون معهم

لحم ضأن رخيص، ودهنًا ممتازًا (سمن)، والكثير من صوف الخيام وفراء الخراف الأحمر والأبيض والذي كان رائجًا لاستخدامه كغطاء لسرج الإبل» (Dickson 1949: 546). توضح وتأثر الرعي هذه وجود أنماط مختلفة من اقتصاديات الرعي البدوية، إذ وجدت علاقة اقتصادية وثيقة منذ بداية الألفية الثانية قبل الميلاد بين القبائل القاطنة على أطراف الصحراء في بلاد ما بين النهرين وتلك القاطنة في شمال وشرق شبه الجزيرة العربية.

غالبًا ما كان يتم التقليل من شأن الأهوار باعتبارها منطقة متأخرة لكن، وكما أوضح هذا الاستعراض الوجيز، فهي بيئة متحركة وحيوية تغيرت أبعادها عبر الأزمنة. كانت غنية بالموارد المتجددة، فشرط الأراضي المرتفعة بحذاء المجاري المائية كان ملائمًا لزراعة أشجار النخيل والشعير المتحمل للملوحة والأرز، كما كان بها إمكانات جيدة للرعي. قدمت الأهوار تنوعًا في المناطق البيئية القادرة على دعم المجتمعات الصغيرة المنعزلة وأيضًا المراكز السكانية الأكبر على قنوات النهر الرئيسية، وكانت الأخيرة بمثابة ممرات للنقل. وقد اشتهرت البصرة منذ العصور الوسطى بأنها مدينة صاخبة وكوزموبوليتانية، وهي الميناء البحري الوحيد في العراق، وميناء ربط مهم لتجارة الخليج العربي والمحيط الهندي الغربي. تنتقل الآن إلى الأدلة التاريخية والأركيولوجية لهذه المنطقة في أواخر العصور القديمة.

أرض ميسان

على الرغم من عدم توفر المصادر كما هي الحال مع مناطق أخرى أو كما هي متوفرة بالنسبة للعصور الوسطى المبكرة والفترات اللاحقة، إلا أنه من الواضح مع ذلك أن غطاءً اقتصاديًا مشابهًا كان موجودًا خلال الفترة الساسانية عندما كانت هذه المنطقة تقع ضمن الجزء الشرقي والجنوبي من أرض كسكر (انظر أعلاه) والإقليم المنفصل «أرض ميسان» (Morony 1982: 30-39; Hansman 1984)، وقد تشكل الأخير من الجزء الجنوبي من مملكة ميسان السابقة. وبموجب أحكام التقسيم الإداري الرباعي للإمبراطورية الساسانية المتأخرة، كانت أرض ميسان جزءًا مما يسمى «الربع الجنوبي» الذي ارتكز على فارس وشمل منطقة الخليج. وبناءً عليه فإن توجهها الاقتصادي أعيد تحديده وفقًا لذلك التقسيم، في حين أن بقية بلاد ما بين النهرين وقعت ضمن «الربع الغربي» الذي كان يواجه روما إلى الغرب.

تم إقرار وجود ثلاث مدن ساسانية ضمن إقليم أرض ميسان، وتقع جميعها على القنوات النهرية الرئيسية للملاحة. الأولى هي أستراباد أرداشير، وتقع محل العاصمة السابقة لمملكة ميسان خاركس سباسينو (حصن هيسباسين والتي سميت على اسم السدود الواقية التي بناها حولها حاكم بهذا الاسم)، وقد ظلت باقية خلال القرون الوسطى تحت اسم كرخ ميسان (أي قلعة ميسان) وموقعها بالقرب من تقاطع نهر الكرخه (ويُسمى أيضًا نهر تيري) مع الضفة اليسرى لقناة مذار القديمة لنهر دجلة، ويمثلها موقع نايسان الأثري المحصن، وكان هانزمان أول من قام بتعريفه (Hansman 1967: 36-45, pls. V-VIII). وعلى الرغم من غمر هذه المدينة جزئيًا تحت رواسب طميية وتآكلها بفعل جرف القشرة الأرضية لنهر الكرخه، إلا أن مسحًا جيوفيزيائيًا حديثًا أظهر أدلة مبهرّة عن عمارة المساكن المصفوفة داخل شبكة طرقات مستطيلة، وقد استبدلت المساكن جزئيًا في مرحلة لاحقة بمبانٍ تذكارية ضمن نفس التخطيط التعامدي (Killick et al. [2016] وفي هذا الكتاب). ويصف المجمع الكنسي النسطوري (٥٤٤) أسقف باهمان أردشير بأنه مطران إقليم ميشان بأكمله (Chabot 1902: 89, 94, 345, 350). أما المدينة الثانية فعرفت باسم بهمان أرداشير وقام بتعريفها هانزمان أيضًا (Hansman 1967: 46-53) ضمن الموقع المسوّر

المُسَمَّى مغلوب، وتقع هذه المدينة أيضًا على الضفة اليسرى لقناة مذار وقد عرفت في الماضي باسم براتا، وخلال العصور الإسلامية المبكرة باسم فرات ميسان. أما آخر المدن الثلاثة فهي الأبلّة، الميناء الساساني الذي لم يتّبق فيه بعد وموقعه على الضفة اليمنى لقناة دجلة في المنطقة التي تعرف اليوم بعشار، على الأرجح إلى جانب ميناء أبولو القديم أو في نفس موقعه، وقد كان هذا الميناء هو منفذ التجارة البحرية مع الهند (Morony 1982: 37).

يشير وجود هذه المراكز الحضرية والميناء البحري بوضوح إلى أن أرض ميسان كانت مقاطعة مزدهرة خلال الفترة الساسانية. وكما هو الحال في أزمنة أقرب، كانت هناك في الأغلب علاقات معقدة بين سكان الحضر المستقرين والتجار وسكان الريف في الأهوار ووديان الأنهار وأطراف الصحراء. وتشير المصادر المكتوبة أيضًا إلى مجتمعات ذات أطيايف متنوعة كانت تشغل هذه المنطقة في العصور القديمة المتأخرة. ويقال إن شابور الثاني (٣٠٩-٣٧٩ م.) قد نقل ما يقرب من تسعين أسرة اعتنقت عبادة الإلهة البابلية عشتار من ميسان إلى قرية قرب كركوك (Morony 1984: 386). واستقر أهل السند والهندو السيابجة من وادي السند وسوماترا في هذا المكان، وقاموا بتربية الجواميس المائية خلال الفترة الأموية، وربما قبل ذلك (Kröger 1981; Asa Eger 2011: 77). وحتى عقود قريبة كانت هذه المنطقة موطنًا لمجتمع كبير من المندائيين، ويشير عدد من الاكتشافات القائمة على الصدفة أن المندائيين سكنوا هذه المنطقة بالفعل خلال العصور القديمة المتأخرة، فقد كانت هناك اكتشافات متكررة للفائف رصاص ذات نقوش مندائية يرجح أن يعود تأريخها إلى حوالي القرن السادس في إيشان أبو شجر، وهو منطقة لم تتعرض للتنقيب:

جزيرة من الأرض الداكنة العارية، عرضها ثلاثمائة ياردة وتصل إلى ارتفاع عشرة أقدام تقريبًا في أعلى نقطة [...] مشربة بالملح ولم ينم عليها شيء. لم تكن هناك أحجار أو قطع من الصخور، وفي الواقع لم أر أيًا منها في أي مكان بالأهوار. وإذا حكمنا من خلال الطوب وقطع الفخار الملقاة على الأرض، يبدو أن أبا شجر كانت موقعًا لمدينة منسية. قال صدام: «يقولون إن هناك ذهبًا مدفونًا في هذه الجزيرة، وإن المعدن خرجوا بحشا عنه. انظروا، هل ترون أين حفروا؟» وأشار إلى بعض الحفر الضحلة. وأضاف: «لم يعثروا على أي شيء» (Thesiger 1964: 76-77; cf. Young and Wheeler 1977: 40).

أعد أول هذه التقارير هنري رولينسون وجاء فيه أن جي تايلور تحصل في ١٨٥٣ على «بضعة لفائف من صفائح الرصاص وقد نُقشت عليها الرموز الكلدانية» وهي «تبدو أنها كان قد تم إيداعها مع جثث الموتى في أوعية القبر» (British Museum archives/Middle East/Correspondence, letter) (dated 4 March 1853; quoted by Sollberger 1972: 134).

تكرّر محتوى هذه الإفادة في اجتماع للجمعية الملكية الآسيوية في ٢١ مايو/آيار من نفس العام، عندما ورد أن رولينسون قد أرسل نسخة من نقش «يمثل واحدًا من مجموعة متعددة من النقوش مكتوبة على قطع رقيقة من صفائح الرصاص رُصّت معًا في أوعية القبور التي وجدت في مكان يدعى أبو شجر». القول بأن اللفائف كانت مرصوفة في أوعية بالتأكيد صحيح، إلا أن تلك الأوعية لم تكن بالضرورة ضمن محتويات القبور كما افترض.

الشكل ١.٦. المنارة في الزبير كما هي مبنية في بطاقة بريدية بريطانية من الحرب العالمية الأولى. استُخدمت الصورة هنا بمعرفة مجلس أمناء المتحف البريطاني،

.BM EPH-ME. 1406



(46

Ruins of old Basra between
Basra and Zobeir.

وربما استمرت مؤخرًا اكتشافات ماثلة في نفس الموقع إذ عُرض أحدها على تيسيجر الذي وصفها بأنها «قطعة صغيرة من الصفيح الرصاصي مغطاة بالخربشات ... والرجل الذي أعطاني إياها قال إنها كانت جزءًا من لفة كبيرة أذيت ليصنعوا منها ذخيرة» (Thesiger 1964: 78; cf. Young and Wheeler 1977: 41).

أما آنية الرقية ذات النقوش المندائية والتي ربما يعود تاريخها إلى حوالي القرن السادس أو السابع فقد ورد أنها جاءت من منطقة العمارة وشطران المنتفق (de Morgan 1904: pls. I-II)، ويصف جوتزه (Goetze 1946: 17-18, fig. 9) الجرة والإناء المزدانين بالنقوش المندائية بأنهما «تم التحصل عليهما من أنقاض مستعمرة الصابئين في [هور] الخويزة على [نهر] الكرخه».

بعد الفتح العربي استُبدلت مدينة الأبلّة بالحامية العسكرية العربية التي سميت بالزبير (البصرة القديمة) وتأسست في ٦٣٥/٦٣٩ م. على هور الزبير الذي كان وقتئذ المصب الرئيسي للفرات على

الخليج العربي (Gasche ed. 2007: fig. 69)، بالقرب من سبع حصون صحراوية حدودية ساسانية، أحدها قد يكون موقع تلؤل الشعبية التي تقع على بعد سبعة كيلومترات شرق الزبير وعشرين كيلومتراً جنوب غرب البصرة. وقد كشفت عمليات التنقيب، التي أجريت هنا فوق ربوة تبعد حوالي ٥٠٠ متر عن المجمع الأموي الرئيسي، عن حصن مربع صغير من الطوب الطيني تزيينه زخارف جصية بسيطة. أما الفخار الذي وجد في ذات المكان فقد احتوى على بقايا محتومة ومزينة بصلبان وزخارف حيوانية يمكن القول من خلال الوصف أنها تنتمي إلى الفترة الساسانية المتأخرة (Majhul 1972: 145 Postgate 1972).

موقع الزبير تشغله الآن ضواحي البصرة الغربية، وعلى الرغم من سهولة الوصول إليها إلا أنها نادراً ما ذكرت في كتابات المسافرين الأوروبيين الأوائل أو علماء الآثار، ولكنها كثيراً ما صوّرت في البطاقات البريدية التي كانت تُنتج للقوات البريطانية المتمركزة في المنطقة وقت الحرب العالمية الأولى (الشكل ١٠٦). وفي مكان ما هنا عُثر على تمثال شرق متوسطي من العصور القديمة المتأخرة، مُعاد استخدامه ومصنوع من حجر جيرى، يُمثل المسيح الشاب في صورة «الراعي الصالح».

وكان السير أرنولد تالبوت وويلسون (١٨٨٤-١٩٤٠)، الذي شغل وقتها منصب نائب المفوض المدني في بغداد (الشكل ٢٠٦ في الصفحة التالية)، هو من عثر عليه وقدمه إلى المتحف البريطاني في عام ١٩١٩. وجاء أول الاستكشافات المسجلة في الموقع في ١٩٠٨/١٩٠٧ حين قام إرنست هرتسفلد بتدوين ملاحظاته عن المئذنة القائمة للجامع الكبير (Sarre and Herzfeld 1911: vol. I, 249-52, vol. III, pl. XXXVII)، وفي ١٩٧٢/١٩٧٣ قامت بعثة استكشافية، برئاسة الدكتور خالد الأدمي من قسم التاريخ في جامعة البصرة، بالتنقيب الجزئي في موقع مبنى الجامع ل يتم كشف التصميم العام للجامع وبقايا واجهته ذات الكتابات والنقوش الكوفية المصنوعة من الطوب المقصوص (Postgate 1973: 191-2). وفي ١٩٧٨ تجددت عمليات التنقيب على نطاق أوسع بقيادة الدكتور كاظم الجنابي لحساب الهيئة العامة للآثار، وكشفت هذه العمليات عن جزء من حي سكني من الفترة العباسية المبكرة، لكن لم ينشر عن هذا الكشف سوى تفاصيل موجزة، وقد فُقد أرشيف الاكتشافات أثناء عمليات النهب التي حدثت بعد حرب الخليج الأولى (Postgate and Watson 1979: 147-8). وجرّت في الآونة الأخيرة عمليات تنقيب إنقاذية محدودة نتج عنها اكتشاف مواد فخارية وفرن أو تنور من الفترة العباسية المبكرة (محادثة شخصية، قحطان العبيد، ٢٠١٠).

سرعان ما تنامت الأهمية الاقتصادية للبصرة لتحل محل المدن الساسانية الواقعة أعلى النهر. وكان بها جالية إيرانية كبيرة من المحتمل أن يكون أغلب أفرادها قد انتقلوا من الأبلّة (انظر Morony 1984: 196). وتشير كتابات الكتاب المسلمين الأوائل إلى أن البصرة كان بها العديد من الأسواق وكانت مركزاً للإنتاج والتجارة. ويقدم الموقع والاتجاه المكاني لهذه الأسواق (التي لم يتم التنقيب عنها بعد) أدلة مهمة عن كيفية استغلال المدينة لمجالات التجارة القديمة والناشئة على حد سواء (الشكل ٣٠٦ في الصفحة التالية). فكان صانعو النحاس وصانعو الأكواب وباعة وصانعو الزجاج يشغلون السوق الكبير على قناة بلال، في حين وُجد سوق الفخار بالقرب من سوق السمك على قناة سيحان في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة. أما سوق المربد الواقع على الحافة الجنوبية الغربية فكان مقصداً للقوافل والبدو فكان يضم باعة أرسنة الجمال وتجار الماشية والطيور والدهون والعطافير (Naji & Ali 1981).



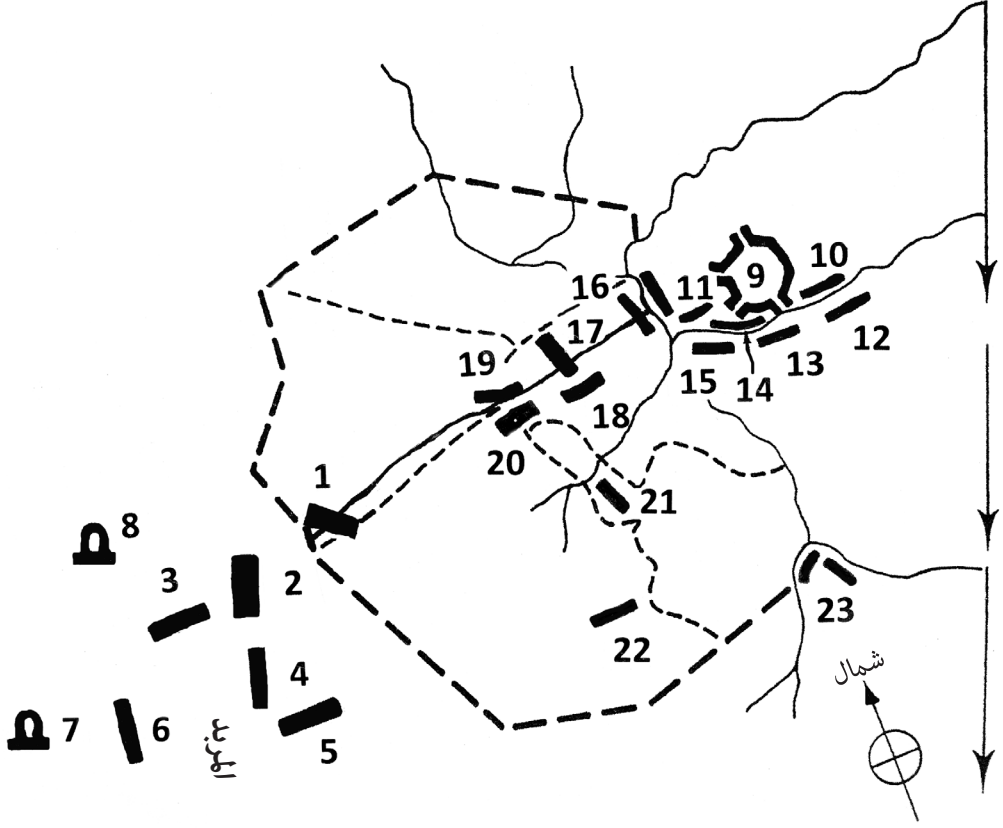
الشكل ٢.٦. تمثال يصوّر المسيح في صفة «الراعي الصالح»، عُثِر عليه في الزبير. استُخدمت الصورة هنا لمعرفة مجلس أمناء المتحف البريطاني،

.BM 1919,1213.1 = 114262

ويعزى الفضل في تطور البصرة من معسكر إلى ميناء بري وبحري إلى هذا الموقع الذي يلتقي فيه النهر بالبحر والصحراء، وقد صفها كاتب في القرن العاشر بأنها «كون صغير»، ثم ذهب إلى ما قاله الجاحظ:

من يأتي إلى هذه القناة النهرية ويرى قصر أنس [ب. مالك]، سيشاهد أرضاً بيضاء كالكاפור وسيرى السحالي التي يمكن صيدها والغزلان والأسماك وصيادي السمك، وسوف يسمع البحاري غني على دفته وأنشودة حادي العيس الذي يحث جملة. (الثعالبي ١٩٦٨، ص. ١٢٣)

كما أقرّت أسواق مشابهة بالبصرة في القرن الثامن عشر: «في سوق القزازة، على سبيل المثال، يمكن للمرء أن يجد الحرير ومواد التطريز، بينما تخصص سوق الصفاير في آنية النحاس. وكانت هناك أسواق للأقمشة، والسكاكين، والأقلام، والإبل، والأغنام، والخيول، والأسماك، والخضروات، والبخور، والعديد من الأشياء الأخرى» (Abdullah 2001: 24). في كلا الحالتين، تشابهت تلك الأسواق في الأغلب مع سابقتها في بصرة ما قبل الإسلام، لكن ربما كان نمو أسواق البدو انعكاساً مباشراً لتغير الوضع السياسي



الشكل ٣.٦. المواقع التقريبية لأسواق البصرة داخل وخارج الأسوار حسب المصادر المكتوبة الإسلامية الأولى. منقول عن Naji & Ali 1981.

بعد الفتح العربي وازدهار الاقتصاد العربي الذي تبعه. وشهدت الفترة من منتصف وأواخر القرن السابع وصولاً إلى بدايات القرن التاسع زيادة كبيرة في عدد المواقع الأثرية في الجزيرة العربية حين بدأت المجتمعات البدوية السابقة بالاستقرار. فقد استوردوا كميات كبيرة من الفخار والأواني الزجاجية وربما العديد من البضائع الأخرى من جنوب العراق وأماكن أخرى. شهدت هذه الفترة أيضاً ازدهاراً في تطور كنيسة المشرق. فالعديد من الكنائس والأديرة التي اشتهرت من الناحية الأركيولوجية تعود إلى تلك الفترة، وتتوزع مواقعها بدءاً من أطراف صحراء العراق الغربية بالقرب من نجف ووصولاً إلى جزر عكاظ وفيلكا وخرج وصير بني ياس في الخليج العربي. وتعتبر مستوطنة القرن الثامن الكبيرة عند خليج الكويت، وكذلك مستوطنات القرن الثامن والتاسع في مروب في قطر وجزيرة الحليّة بالقرب من رأس الخيمة في الإمارات العربية المتحدة، انعكاساً لحركة النمو الاقتصادي نفسها (Kennet, Ulrich & Le Maguer 2013; Guérin & Al-Naimi 2010; Sasaki & Sasaki 1996).

أرض ما وراء البصرة

تعتبر منطقة البصرة واحدة من أقل مناطق العراق المستكشفة من الناحية الأثرية. في أواخر الخمسينيات سجل جورج رو ثمانية تلال مغمورة جزئياً على طول الحافة الجنوبية لهور الحمار مع وجود مواد فخارية قرب السطح يتوزع تأريخها بين النصف الثاني من الألفية الثالثة والعصر الإسلامي (Roux 1960). وقد أدى التجفيف اللاحق لمعظم الأهوار خلال التسعينيات وإعادة تطوير

الأراضي لأغراض الزراعة إلى اكتشاف المزيد من التلال، مما يعني أن هذه المناطق لم تكن مستنقعية بنفس الدرجة وقت سكناها، مع الأخذ في الاعتبار أن معظم هذه المواقع لم يتم تأريخها بدقة بعد (Gasche ed. 2007: fig. 65). ومع ذلك فإن الاكتشاف الأخير للمواقع الساسانية على خط القنوات الواقعة شرق شط الغراف يؤكد أن الجزء الشمالي من هذه المنطقة كان في الأصل امتداداً للسهول الرسوبية، وأن المدن الساسانية في رقبة المدائن والمدائن الواقعة على جانبي تل تيلوه (جيرسو القديمة) هي جزء من هذه الشبكة (انظر Ghirshman 1936). وكلما اتجهنا جنوباً تتحول هذه السهول إلى أهوار، لكن هناك آراء مختلفة بشأن الامتداد الفعلي لمنطقة الأهوار في العصور القديمة، ولا سيما خلال القرنين الخامس والسادس، وتتراوح تلك الآراء بين اعتبار أن نطاق الأهوار وقتها لم يكن مختلفاً عن نطاقها الحالي سوى بشكل طفيف (Lees & Falcon 1952) والنظر إلى المنطقة جنوب الوركاء بأكملها كجزء من المنطقة التي توصف في مصادر ما بعد الفتح العربي بالبطأح («المستنقع الكبير») مع ندرة وجود مستوطنات هناك (Adams & Nissen 1972: 59-62, fig. 21). الطبيعة العرضية لحركة القشرة الأرضية تعني تغيير خط ساحل الخليج العربي، بل وتشير الأبحاث الجيومورفولوجية إلى صورة جيولوجية أكثر تعقيداً ناتجة عن التغيرات في مستوى سطح البحر والتغير المناخي (Larsen 1975; Kirkby 1977; al-Asfour 1978). وفي الوقت الذي تقترح فيه بعض المصادر المكتوبة أن الشكل العام لرأس الخليج لم يتغير بشكل جوهري خلال الألفيتين ونصف المائتين (Hansman 1978)، تشير مصادر أخرى إلى مروره بتغيرات أكثر ديناميكية (Gasche ed. 2007: 54). وتظهر عينات التربة المؤرخة بالكربون المشع أن قلب الأراضي الرطبة المثلثة في الأهوار، هور الحمار وهور الحويزة، قد تشكل في أوائل العصر الإسلامي، وكذلك الحال بالنسبة إلى شط العرب (Pournelle 2003: 126-7). في هذه الحالة فإن امتداد الأراضي الرطبة في جنوب العراق في أوائل العصور الوسطى يتطابق مع النمط الذي لوحظ في سهل العمق وسهل الغاب في منطقة وسط نهر العاصي في سوريا، ما يوحي أن هذه المناطق هي نتاج لسوء إدارة البشر للموارد المائية وليست بيئات طبيعية أزلية.

وفقاً لابن رسته، فإن القوارب القادمة من الهند كان يمكنها «قبل الإسلام» المرور على طول قناة مزار، أي المسار الشرقي الحالي لنهر دجلة، بل وكان يمكنها بلوغ قطيسفون (Le Strange 1966: 27-28)، ووفقاً لياقوت فإن بهرام الخامس (٤٢١-٤٣٩) قد قام بسد هذه القناة من أجل تحويل المياه إلى قناة كسكر الغربية، ونتج عن ذلك قطع المياه عن مناطق أرض جوخي، بين خانقين وخوزستان، لأنها كانت مطلوبة للحقول الجديدة في الأراضي المجففة حديثاً شرق الوركاء. ووفقاً للبلاذري غمر الفيضان هذه المنطقة في عهد قباد الأول (٤٨٨-٥٣١) ولكن تم استزراعها مرة أخرى بعد ذلك، حتى حدوث فيضانات أخرى في حوالي عام ٦٢٩ م. وكانت مدمرة هذه المرة وتم على إثرها التخلي عن أنظمة الري المركزية السابقة (ترجمة إنجليزية 1916: 453 Hitti). ويكرر كلا من أبي الفدا والقزويني رواية البلاذري التي تقول إن تلك الفيضانات الأخيرة نتجت عن تردّي صيانة القنوات حيث كان الفارسيون «مشغولون بالقتال فتجاهلوا الصدوع التي كانت تحدث دون أن يلتفت إليها أحد، كما فشل الملاك الإقطاعيون (الدهكان) في إصلاحها» (ترجمة إنجليزية 1916: 454 Hitti). وتدعم روايات العرب تصوراً مفاده أن الدولة استثمرت في نظم ري واسعة النطاق، ولكن كانت تلك عرضة للانهياب في غياب الصيانة. ثم بدأت الأراضي الرطبة بالتوسع لينتج عنها نمط حياة بديل.

التجارة بين الخليج العربي والمحيط الهندي

إذا قارننا بين مجموعات البيانات المختلفة، المكتوبة منها والأركيولوجية، سنجد أن منطقة البصرة كانت بنفس درجة الأهمية بالنسبة للاقتصاد الإمبراطوري الساساني التي استمرت عليها خلال أوائل العصور الإسلامية. إذ يدل إنشاء مركزين حضريين جديدين ووجود ميناء على الخليج العربي - وكل ذلك في نطاق منطقة البصرة - على أن المدينة كانت تتمتع بدعم أصحاب السلطة، وأيضًا على وجود طبقة تجار متنامية وإدارة فعالة وتعداد قوي، بالإضافة إلى قاعدة زراعية كبيرة وشبكات نقل متكاملة.

ناقش العديد من الدراسات مدى وكفاءة الإدارة الساسانية للأراضي والمياه بناء على مسح أركيولوجية من العراق وإيران، كما تم بحث كفاءة التعمير والتخطيط العسكري الساساني من خلال أدلة مقابلة في دراسات أخرى (Simpson 2017; Sauer et al. 2013). وأكدت دراسات عديدة على أهمية التجارة الملاحية بالنسبة إلى الاقتصاد الساساني وتطوير الخليج العربي، إلا أن نطاق وتكوين هذه الأهمية ما زال غير واضحين. واتباع معظم الباحثين خطى وايتهاوس وويليامسون (Whitehouse & Williamson 1975) في القول بأن هذه الأنظمة كانت عالية التطور ومماثلة للأنظمة المعروفة من الفترة العباسية (Daryaee 2003; Morony 02/2001)، في حين كان آخرون أكثر حذرًا في طرحهم فقالوا إن الإنتاج الزراعي المحلي تمتع بأهمية أكبر في شمال الخليج وشكّكوا في التأريخ الساساني للطبقات القديمة في بندر سيراف ولفتوا الانتباه إلى السياق السياسي الحديث ودوره في الترويج لفكرة التفوق البحري الحربي الإيراني (على سبيل المثال Priestman 2005). علاوة على ذلك، وبالنسبة إلى الناحية الجنوبية من الخليج، فقد أظهرت إعادة تقييم لمسوحات سابقة، بالإضافة إلى أبحاث أحدث، أن نطاق المستوطنات الدائمة في شرق الجزيرة العربية خلال هذه الفترة كان أضيق بكثير مما كان مفترضًا في السابق (Kennet 2007).

لكن على الرغم من ندرة الأدلة المباشرة من العراق أو إيران، فإن هناك أدلة أركيولوجية متنامية على التجارة الملاحية الساسانية (والبيزنطية) في المحيط الهندي الغربي (Howard-Johnston 2017). وفي إشارة ذات دلالة، يروي بروكوبيوس القيسراني كيف «كان التجار الفارسيون دائمي التواجد في أولى الموانئ التي ترسو بها السفن الهندية (نظرًا لأنهم يسكنون البلد المجاور) كما كانوا يتعاونون حمولات السفن بأكملها» (Wars I, XX, 12). وفي زمن أبعد، ورد في كتاب يعود إلى القرن الأول ميلادية ويُعرف باسم «الإبحار في البحر الأحمر» (Periplus of the Erythraean Sea) الحديث عن سفن ضخمة تبحر من بهروش (باريجازا) في ولاية غوجارات إلى الأبلّة (أبولوجوس) وميناء آخر على الخليج العربي يُسمى (عُمانا أو أوماننا)، وكانت هذه السفن محملة بالآتي:

إمدادات من النحاس، وخشب الساج، وحزم، لشتلات، وجذوع من نبات السرسوع وخشب الأنوس... ويصدر كلا الميناءين إلى باريجازا والجزيرة العربية كميات كبيرة من اللؤلؤ لكن جودته أقل من الهندي، وأقمشة أرجوانية، أقمشة محلية، وخمور، ومكيات كبيرة من التمور، وذهب، وعبيد.

(ترجمة إنجليزية 71-73 Casson 1989)

ويمكن الاستدلال على حجم حمولات السفن من خلال وصف سفينة هيرمابولين، الوارد في برديات موزيريس التي تعود إلى منتصف القرن الثاني، الذي يقدر حمولتها بأكثر من ٦٢٠ طنًا، يمثل الفلفل حوالي ٨٦٪ منها (De Romanis 2015: 139). ويذكر بروكوبيوس عمليات شراء بالجملة ما يعني ضمناً تبادل

تجاري واسع النطاق كان يقوم به التجار الإيرانيون، رغم ذلك فليس بالمفاجئ أن السفن نفسها كانت هندية نظراً لندرة الأخشاب المناسبة لبناء القوارب على طول الخليج العربي. والأکید أن هذا الوضع كان وراء ثراء أصحاب السفن الهندية، ومن هنا جاءت إشارة الراهب البوذي والرحالة فا شيان إلى التجار المُسمّين بالسنسكريتية «سا-بو» أو «سارثقاها» بامتلاك منازل «فخمة وجميلة» في أنورادابورا في أوائل القرن الخامس (Banaji 2015: 125). ويبرز حجم الازدهار الاقتصادي من خلال العدد الهائل لموانئ جنوب آسيا الموثقة في القرنين الأول والسادس، والتي يمكن إلى حد معقول تحديد مواقع خمسة عشر منها (Banaji 2015: 115). وتوضح الأعداد الكبيرة من بقايا الجرار البيضاوية الساسانية - التي تم استخراجها من ميناء موزيريس المشهور بتصدير الفلفل في جنوب الهند - اتساع نطاق تصدير النبيذ والزيت في أمفورات النقل تلك، كما تفسر مصدر الكميات الكبيرة من الفلفل التي رأتها قوات الإمبراطور هرقل في المخازن الملكية في دستجرد (Tomber 2007; cf. Greatrex & Lieu 2002: 215). وتشير الاكتشافات تحت المائية للجرار البيضاوية والمعدات العسكرية قبالة الساحل الإيراني بين بندر غناوه وبوشهر إلى إبحار السفن في هذه المنطقة (Tofighian, Nadooshan & Mousavi 2011). كما تم العثور على أواني مائدة مطلية وأباريق وأمفورات وأوعية زجاجية، تعود كلها إلى العصر الساساني، وأيضاً آنية زينة مرسومة من جنوب شرق إيران، في مواقع متفرقة من شرق شبه الجزيرة العربية (de Cardi 1972; Kennet 2004; Andersen 2007).

شكلت سريلانكا النقطة المحورية بين الشبكات التجارية في غرب وشرق المحيط الهندي. وقد تم استخراج لوح كتابة طيني ساساني في مانتاي في ١٩٨٤ (Carswell 1991: 199, fig. 11.2)، كما عُثِر في أنورادابورا على جرار بيضاوية مُبطّنة باستخدام قار يعود أصله إلى جنوب شرق إيران (Stern et al. 2008). أما ناحية الغرب، في ميناء قانا جنوب الجزيرة العربية، فقد تم استخراج بقايا من آنية مائدة مرسومة ووعاء من الزجاج المقصوص يعودا إلى جنوب شرق إيران (Simpson 2007b)، وكذلك عدد قليل من الأواني الساسانية المطلية تنتمي إلى الفترة الزمنية من القرن الثالث إلى أواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس في منطقة شبوة (Rutten 2009)، وأخرى ذات أصول أكسومية تنتمي إلى بدايات القرن السادس في أكسوم وعند كنيسة القديس جورج في لالبيلا (Phillips 2000: 326-7, fig. 284; Manzo 2005: 60-62). وبالرغم من أن أغلب هذه الاكتشافات صغيرة كمّاً، إلا أنها تؤكد حركة تداول الأغراض المختلفة، مثل أدوات المائدة والأوعية والوثائق المحفوظة في أوعية محكمة، في نسق مشابه لنسق تداول السلع البيزنطية الرومانية القديمة والمعاصرة في المحيط الهندي الغربي، وهو ما لم يوثق وجوده بعد في شرق أفريقيا جنوب رأس حافون، بخلاف أوائل العصر الإسلامي.

ختام

كمنت أهمية منطقة البصرة خلال العصور القديمة المتأخرة في الربط بين أرباع الإمبراطورية الساسانية في الغرب والجنوب، أي ما يمثل اليوم دولة العراق وجنوب إيران والخليج العربي. ولا يمكن المبالغة في تقدير الأهمية الاقتصادية لتوحيد تلك المناطق داخل إدارة واحدة. إن وجود عدد من المراكز الحضرية المؤتقة على طول القنوات النهرية يُعدّ دليلاً على الاستثمار في البنى التحتية لهذه المراكز وصيانة مجاريها المائية، وارتبط ذلك بشكل وثيق بمخططات واسعة النطاق لإدارة الأراضي والمياه في سوسيان وخوزستان وجنوب العراق. وقد سبق وجود ميناء البصرة مباشرة ميناء الأبلّة الساساني الذي مثل

في الأغلب البوابة الملاحية الرئيسية لربط بلاد ما بين النهرين بالخليج العربي والمحيط الهندي الغربي، وكان بلا شك نقطة جذب للاستثمارات العامة والخاصة. ومن المتوقع أن تؤدي عمليات التنقيب في ميناء مثل هذا إلى تغيير كامل في فهمنا للتجارة الملاحية الساسانية، مثلما أظهرت أبحاث العقود الأخيرة في منطقة البحر الأحمر أن هذه المنطقة كانت أكثر حيوية في العصور القديمة المتأخرة مما كان متصوراً (Sidebotham 2011; Tomber 2007). ما زال أمامنا الكثير لفهمه عن المناطق الداخلية للأهوار في الأبله/البصرة وكيفية ارتباطها بالمدن أعلى النهر والأراضي الطميية المزروعة خلفها، وسيساعد التنقيب في موقع واحد أو أكثر من المواقع التي تم اكتشافها مؤخراً في منطقة شط الغراف على الإجابة عن أسئلة تخص تأريخ هذه المنطقة.

مراجع

- Abdullah, T. A. J. 2001. *Merchants, Mamluks, and Murder. The Political Economy of Trade in Eighteenth-Century Basra*. Albany, NY: SUNY Press.
- Adams, R. McC. 1962. 'Agriculture and urban life in Early southwestern Iran', *Science* 136/3511 (13 April): 109–22.
- . 1981. *Heartland of Cities: Surveys of Ancient Settlement and Land Use on the Central Floodplain of the Euphrates*. Chicago: University of Chicago Press.
- Adams, R. McC. and H. J. Nissen. 1972. *The Uruk Countryside: The Natural Setting of Urban Societies*. Chicago.
- Al-Asfour, T. 1978. The marine terraces of the Bay of Kuwait. Pp. 245–54 in W. C. Brice (ed.), *The Environmental History of the Near and Middle East Since the Last Ice Age*. London: Academic Press.
- al-Balādhurī. 1916. *The Origins of the Islamic State, being a translation from the Arabic accompanied with annotations geographic and historic notes of the Kitāb Futūh al-Buldān of al-Imām abu-l 'Abbās Ahmad ibn-Jābir al-Balādhurī* (Murgotten, F. C., ed.). New York: Columbia University.
- Andersen, S. F. 2007. *The Tylos Period Burials in Bahrain. Volume 1. The Glass and Pottery Vessels*. Manama: Aarhus University Press.
- Anon. 1853. Annual Report of the Royal Asiatic Society, 21 May 1853. *Journal of the Royal Asiatic Society* 13: xvi.
- Asa Eger, A. 2011. The swamps of home: Marsh formation and settlement in the early medieval Near East. *Journal of Near Eastern Studies* 70/1 (April): 55–79.
- Banaji, J. 2015. "Regions that sook Seaward": Changing fortunes, submerged histories, and the slow capitalism of the sea. Pp. 114–26 in F. De Romanis and M. Maiuro (eds.), *Across the Ocean: Nine Essays on Indo-Mediterranean Trade*. Leiden/Boston: Brill.
- Bawden, E. 1945. The Marsh Arabs of Iraq. *The Geographical Magazine* 17: 382–93.
- Carswell, J. 1991. The port of Mantai, Sri Lanka. Pp. 197–203 in V. Begley and R. D. De Puma (eds.), *Rome and India. The Ancient Sea Trade*. Madison: University of Wisconsin Press.
- Carter, R. A., K. Challis, S. M. N. Priestman and H. Tofghian. 2006. The Bushehr hinterland. Results of the first season of the Iranian–British archaeological survey of Bushehr province, November–December 2004. *Iran* 44: 63–103.
- Casson, L. (ed.). 1989. *The Periplus Maris Erythraei*. Princeton: Princeton University Press.
- Chabot, J. B. 1902. *Synodicon Orientale*. Paris: Impr. Nationale.
- Daryaei, T. 2003. The Persian Gulf trade in late antiquity. *Journal of World History* 14/1: 1–16.

- De Cardi, B. 1972. A Sasanian outpost in northern Oman. *Antiquity* 46/184 (December): 305–10, pl. XLVIa.
- De Morgan, J. 1904. *Etudes linguistiques. Deuxieme partie. Textes Mandaites*. Paris: Impr. Nationale.
- De Romanis, F. 2015. Comparative perspectives on the pepper trade. Pp. 127–50 in F. De Romanis and M. Maiuro (eds.), *Across the Ocean: Nine Essays on Indo-Mediterranean Trade*. Leiden/Boston: Brill.
- Dickson, H. R. P. 1949. *The Arab of the Desert. A Glimpse into Badawin Life in Kuwait and Sau'di Arabia*. London: George Allen and Unwin Ltd.
- Dowson, V. H. W. 1921. *Dates and Date Cultivation of the 'Iraq*. Cambridge: W. Heffer.
- Drower, E. S. 1949. Arabs of the Hor al Hawiza. Pp. 368–406 in H. Field et al. *The Anthropology of Iraq. Part I, Number 2, The lower Euphrates–Tigris region*. Chicago: Field Museum.
- Eqbal, H. 1976. The Seleucid Parthian, and Sasanian periods on the Izeh Plain. Pp. 114–23 in H. Wright (ed.), *Archaeological Investigations in northeastern Xuzestan, 1976*. Ann Arbor: Museum of Anthropology, University of Michigan.
- Gasche, H. (ed.), 2007. The Persian Gulf shorelines and the Karkheh, Karun, and Jarrahi rivers: A geo-archaeological approach. A joint Belgian-Iranian project. First progress report – part 3. *Akkadica* 128: 1–72.
- Ghirshman, R. 1936. Appendice sur les fouilles de Medaïn. Pp. 139–50 in H. de Genouillac, *Fouilles de Telloh sous la direction de H. de Genouillac, tome II. Époques d'Ur IIIe Dynastie et de Larsa*. Paris: Geuthner.
- Goetze, H., 1946. The early Iranian material in the Bombay Museum. *Bulletin of the Iranian Institute of America* 6: 14–19.
- Greatrex, G. and S. N. C. Lieu. 2002. *The Roman Eastern Frontier and the Persian Wars. Part II, AD 363–630. A narrative sourcebook*. New York: Routledge.
- Guérin, A. and F. A. Al-Naimi. 2010. Preliminary pottery study: Murwab horizon in progress, ninth century AD, Qatar. *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 40: 17–34.
- Hansman, J. 1967. Charax and the Karkeh. *Iranica Antiqua* 7: 21–58, pls V–VIII.
- . 1978. The Mesopotamian delta in the first millennium BC. *The Geographical Journal* 144: 49–61.
- . 1984. The land of Meshan. *Iran* 22: 161–6.
- Howard-Johnston, J. 2017. The India trade in Late Antiquity. Pp. 284–304 in E. Sauer (ed.), *Sasanian Persia. Between Rome and the Steppes of Eurasia*. Edinburgh: Edinburgh University Press.
- Kennet, D. 2007. The decline of Eastern Arabia in the Sasanian period. *Arabian Archaeology and Epigraphy* 18/1 (May): 86–122.
- . 2004. *Sasanian and Islamic Pottery from Ras al-Khaimah: Classification, chronology, and analysis of trade in the western Indian Ocean*. Oxford: Archaeopress.
- Kennet, D. with contributions by B. Ulrich and S. Le Maguer. 2013. *Kadhima. Kuwait in the Early Centuries of Islam*. Kuwait City: National Council for Culture, Arts and Letters.
- Killick, R. et al. [2016]. *Charax Spasinou. Alexander's lost city in Iraq*. Manchester: University of Manchester.
- Kirkby, M. J. 1977. Land and water resources of the Deh Luran and Khuzistan plains. Pp. 251–88 in F. Hole (ed.), *Studies in the Archaeological History of the Deh Luran Plain: The Excavation of Chagha Sefid*. Ann Arbor: University of Michigan.
- Kröger, J. 1981. Sasanian Iran and India: Questions of interactions. Pp. 441–8 in H. Härtel (ed.), *South Asian Archaeology 1979*. Berlin: Museen Preussischer Kulturbesitz.
- Larsen, C. E. 1975. The Mesopotamian delta region: a reconsideration of Lees and Falcon. *Journal of the American Oriental Society* 95/1: 43–57.
- Le Strange, G. 1966. *The Lands of the Eastern Caliphate*. London: Frank Cass.

- Majhul, D. 1972. Majmū‘at Tulūl al-Shu‘ayba. *Sumer* 28: 243–6 [in Arabic].
- Manzo, A. 2005. Aksumite trade and the Red Sea exchange network: A view from Bieta Giyorgis (Aksum). Pp. 51–66 in J. C. M. Starkey (ed.), *People of the Red Sea. Proceedings of Red Sea Project II Held in the British Museum, October 2004*. Oxford: Archaeopress.
- Maxwell, G. 1959 (reprint). *A Reed Shaken by the Wind*. London: Readers Union.
- Moghaddam, A. and N. Miri. 2003. Archaeological research in the Mianab plain of lowland Susiana, southwestern Iran. *Iran* 41: 99–137.
- . 2007. Archaeological surveys in the “eastern corridor”, southwestern Iran. *Iran* 45: 23–55.
- Morony, M.G. 1982. Continuity and change in the administrative geography of Late Sasanian and Early Islamic al-‘Iraq. *Iran* 20: 1–49.
- . 1984. *Iraq After the Muslim Conquest*. Princeton: Princeton University Press.
- . 2001/02. The Late Sasanian economic impact on the Arabian peninsula. *Nāme-ye Irān-e Bāstān (International Journal of Ancient Iranian Studies)* 1/2: 25–37.
- Naji, A. J. and Y. N. Ali. 1981. The suqs of Basra: Commercial organization and activity in a medieval Islamic city. *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 24: 298–309.
- Neely, J. 1974. Sassanian and Early Islamic water control and irrigation systems on the Deh Luran plain, southwestern Iran. Pp. 21–42 in T. E. Downing and McG. Gibson (eds.), *Irrigation's Impact on Society*. Tucson: University of Arizona.
- Ochsenschlager, E. L. 1974. Mud objects from al-Hiba. A study in ancient and modern technology. *Archaeology* 27: 162–74.
- . 2004. *Iraq's Marsh Arabs in the Garden of Eden*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.
- Phillips, J. 2000. Pottery and clay objects. Pp. 303–37 in D. W. Phillipson et al, *Archaeology at Aksum, Ethiopia, 1993–7*, vol. II. London: British Institute in Eastern Africa.
- Postgate, J. N. 1972. Excavations in Iraq 1971–72. *Iraq* 34: 139–50.
- . 1973. Excavations in Iraq 1972–73. *Iraq* 35: 188–209.
- Postgate, J. N. and P. J. Watson. 1979. Excavations in Iraq, 1977–78. *Iraq* 41: 141–81.
- Pournelle, J. 2003. Marshland of Cities: Deltaic Landscapes and the Evolution of Early Mesopotamian Civilization. PhD dissertation, University of California, San Diego.
- Priestman, S. 2005. The rise of Siraf: long-term development of trade emporia within the Persian Gulf. Pp. 137–56 in *Proceedings of the International Congress of Siraf Port, November 14–16, 2005, Bushehr*. Bushehr.
- Roux, G. 1960. Recently discovered ancient sites in the Hammar Lake district (southern Iraq). *Sumer* 16: 20–31, pls I–VIII, map.
- Rutten, K. 2009. A study of the Glazed Ware from Shabwa. Pp. 193–8 in J.-F. Breton (ed.), *Fouilles de Shabwa IV. Shabwa et son context architectal et artistique du 1er siècle avant J.-C. au IVe siècle après J.-C.* Sanaa/Damascus/Beirut/Amman: CEFAS and IFPO.
- Salim, S. M. 1962. *Marsh Dwellers of the Euphrates Delta*. London: Bloomsbury Academic.
- Sarre, F. and E. Herzfeld. 1911/20 *Archäologische Reise im Euphrat- und Tigris Gebiet*. Berlin: D.Reimer (four volumes).
- Sasaki, T. and H. Sasaki. 1996. 1995 excavations at Jazirat al-Hulayla, Ras al-Khaimah. *Bulletin of Archaeology, The University of Kanazawa* 23: 37–178.
- Sauer, E. W., H. Omrani Rekavandi, T. J. Wilkinson and J. Nokandeh, et al. 2013. *Persia's Imperial Power in Late Antiquity. The Great Wall of Gorgan and Frontier Landscapes of Sasanian Iran*. Oxford: Oxbow.
- Sidebotham, S. E. 2011. *Berenike and the Ancient Maritime Spice Route*. Berkeley/Los Angeles/London: University of California Press.

- Simpson, St J. 2015. The land behind Ctesiphon: The archaeology of Babylonia during the period of the Babylonian Talmud. Pp. 6–38 in M.J. Geller (ed.), *The Archaeology and Material Culture of the Babylonian Talmud*. Leiden/Boston: Brill.
- . 2017. Sasanian cities: Archaeological perspectives on the urban economy and built environment of an empire. Pp. 21–50 in E. Sauer (ed.), *Sasanian Persia. Between Rome and the Steppes of Eurasia*. Edinburgh: Edinburgh University Press.
- . 2018. Christians on Iraq's desert frontier. *Al-Rafidan* 39: 1–30.
- Sollberger, E. 1972. Mr Taylor in Chaldaea. *Anatolian Studies* 22: 129–39.
- Stern, B., J. Connan, E. Blakelock, R. Jackman, R.A.E. Coningham and C. Heron. 2008. From Susa to Anuradhapura: reconstructing aspects of trade and exchange in bitumen-coated ceramic vessels between Iran and Sri Lanka from the third to the ninth centuries AD. *Archaeometry* 50/3 (June): 409–28.
- Tha'alibi. 1968. *The Latā'if al-Ma'ārif/The Book of Curious and Entertaining Information* (translated by C.E. Bosworth). Edinburgh: Edinburgh University Press.
- Thesiger, W. 1964. *The Marsh Arabs*. London: Longmans.
- Thesiger, W. and G. Maxwell, G. 1958. *Marsh dwellers of southern Iraq*. The National Geographic Magazine 113/2 (February): 205–39.
- Tofghian, H., F.K. Nadooshan and S.M. Mousavi. 2011. Sasanians in the Persian Gulf according to archaeological data. *e-Sasanika Archaeology* 2 [accessed October 2012].
- Tomber, R. 2007. Rome and Mesopotamia – importers into India in the first millennium AD. *Antiquity* 81: 972–88.
- Walstra, J., V.M.A. Heyvaert and P. Verkinderen. 2010. Assessing human impact on alluvial fan development: A multidisciplinary case-study from Lower Khuzestan (SW Iran). *Geodinamica Acta* 23/5–6 (December): 267–85.
- Ward, W.H. 1886. Report on the Wolfe expedition to Babylonia 1884–5. Boston, Mass: Cupples, Upham and Co.
- Wenke, R.J. 1987. Western Iran in the Partho-Sasanian period: The imperial transformation. Pp. 251–81 in F. Hole (ed.), *The Archaeology of Western Iran. Settlement and Society from Prehistory to the Islamic Conquest*. Washington, D.C.: Smithsonian.
- Whitehouse, D. and A. Williamson. 1973. Sasanian maritime trade. *Iran* 11: 29–49.
- Williamson, A.G. 1972. Persian Gulf commerce in the Sasanian period and the first two centuries of Islam. *Bastan Chenassi va Honar-e Iran* 9/10 (December): 97–109 (foreign section), 142–51 (Iranian section).
- Young, G. and N. Wheeler. 1977. *Return to the Marshes. Life with the Marsh Arabs of Iraq*. London: Collins.

الفصل السابع

نشأة البصرة وتطورها الأول

روبرت هويلاند

كتب مؤرخ سرياني في جنوب غرب إيران حول العام ٦٦٠ ميلاديًا أن البصرة بُنيت «لتوطين العرب في النقطة التي يصب عندها نهر دجلة في البحر الكبير، والتي تقع بين الأراضي المزروعة والصحراء» (Hoyland 1997: 186). وهذا أيضًا ما تؤكد المصادر العربية الباقية من القرن التاسع، أي أن البصرة تأسست في وقت مبكر جدًا من أجل توفير مستوطنات للجنود العرب وعوائلهم. لكن ماذا نعرف عن المدينة في سنوات تكوينها؟ نظرًا لمحدودية المجال هنا، فسأركز على الجوانب الملموسة للبصرة في أوائل العصر الإسلامي، وسأقصر مصادري على شهادات كل من خليفة بن خياط (توفي في ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م.) وأحمد بن يحيى البلاذري (توفي في ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م.).

فهذان العالمان، بالإضافة إلى كونهما مؤلفين لأقدم نصين باقين لتاريخ المسلمين، كان لكل منهما أيضًا مدخلًا خاصًا يؤهله للكتابة عن البصرة بالذات. في حالة ابن خياط، فقد كان هو وعائلته من سكان البصرة الأصليين، كما أن العديد من المصادر التي ينقل عنها أيضًا من مواليد البصرة. وبجيء ذكر اثنان من تلك المصادر أيضًا في كتابات البلاذري، وهما أبو عبيدة معمر بن المثنى (توفي في ٢٠٩ هـ/٨٢٤ م.)، من سكان البصرة ومؤرخها، والوليد بن هشام بن القحذمي، الذي توفي في البصرة في ٢٢٢ هـ/٨٢٧ م.، وكان لعائلته صلات ممتدة بالمدينة، بدءًا بأحد أسلافه الذي أسر أثناء الفتح الإسلامي لأصفهان وأصبح عتيق عائلة أبي بكره الثقفي، الذي كان بدوره من معتوقي النبي. استقرت هذه العائلة مع مخدومها في البصرة، وهكذا بدأت صلة القحاذمة مع المدينة. وما يهمننا بشكل خاص هو واحد من أفراد هذه الأسرة، ويُطلق عليه عادةً قحذم بن أبي قحذم، عمل في الإدارة الإسلامية في البصرة خلال العقود الأربعة الأولى من القرن الثامن، ليصبح القائم على الخراج (صاحب بيت المال) في عهد والي الأموي عمر بن يوسف الثقفي. ومكنه هذا المنصب من الوصول إلى وثائق عن الحياة المادية في البصرة، وقد مرر هذه الوثائق إلى حفيده، ومن خلاله وصلت إلى ابن خياط والبلاذري.

الموقع

الآن وبعد أن ألمنا بخلفية مصدرينا الرئيسيين عن تاريخ البصرة المبكر، يمكننا الانتقال إلى الحديث عن تأسيسها. يفتتح ابن خياط (ص. ١٢٨) بالرواية التالية التي ينسب أحداثها إلى السنة الهجرية الرابعة عشر (أي ٦٣٥ م.):

مر عتبة بن غزوان بموضع المربد فوجد الكذان الغليظ فقال هذه البصرة أنزلوها بسم الله ...

وأُسند ابن خياط هذه المروية إلى صفوان بن عيسى عن أبي نعام عن خالد بن عمير. وكتب المؤرخ محمد الطبري (توفي في ٣١٠ هـ/٩٢٣ م.) لاحقاً نسخة مسهبة من المروية نفسها اعتماداً على الناقلين الثلاثة بالإضافة إلى شُويس أبي الرقاد (١، ٢٣٧٩):

بَعَثَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ، فَقَالَ لَهُ: انْطَلِقْ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي أَقْصَى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأَدْنَى أَرْضِ الْعَجَمِ، فَأَقِيمُوا فَأَقْبِلُوا حَتَّى إِذَا كَأَنَّوْا بِالْمُرْبِدِ وَجَدُوا هَذَا الْكَذَانَ قَالُوا: مَا هَذِهِ الْبُضْرَةُ؟

في كلتا المرويتين مثل نوع التربة عاملاً حاسماً في اختيار الموقع، وهو ما ذُكر في العديد من المرويات الأخرى عن نشأة المدينة. فعلى سبيل المثال يأتي الطبري على ذكر المؤلف القديم سيف بن عمر (توفي في ١٨٠ هـ/٧٩٦ م.) في المروية التالية (١، ٢٣٨٠):

لَمَّا تَوَجَّهَ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ الْمَذَنِّيُّ مِنَ الْمَدَائِنِ إِلَى فَرْجِ الْهِنْدِ، نَزَلَ عَلَى الشَّاطِئِ بِحِيَالِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَأَقَامَ قَلِيلًا ثُمَّ أَرَزَ، ثُمَّ شَكَّوْا ذَلِكَ حَتَّى أَمَرَهُ عُمَرُ بِأَنْ يُنْزَلَ الْحَجَرُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَوْطَانٍ إِذَا اجْتَوَوْا الطَّيْنَ، فَتَزَلُّوا فِي الرَّابِعَةِ الْبُضْرَةَ. وَالْبُضْرَةُ كُلُّ أَرْضٍ حِجَارَتُهَا حَصٌّ.

يبدو الأمر أن جيش عتبة ترك الصحراء والأراضي الطينية غير الصالحة للإقامة الدائمة وانتقل إلى داخل المناطق التي يمكن العثور فيها على الحجارة، حيث استخدمت الحجارة لوضع الأساس وكواد بناء لتشييد المنازل اللازمة لجيش قوامه عدة آلاف.

وتكشف الجملة اللاحقة من المروية ذاتها عن عامل آخر يخص موقع البصرة. «وَأَمَرَ [عتبة] لَهُمْ بِنَهْرٍ يُجْرَى مِنْ دِجْلَةٍ» إلى المستقر الجديد المقترح، لذا قاموا بحفر قناة في الأرض الجديدة للحصول على مياه الشرب. كما أشار البلاذري أيضاً - استناداً إلى أبي عبيدة - إلى قرب مصادر المياه، وذكر ميزة أخرى لموقع البصرة وهي توافر أراضٍ للرعي:

لَمَّا نَزَلَ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ الْخَرِيبَةَ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَعْلَمُهُ نَزُولُهُ إِيَّاهَا وَأَنَّهُ لَا بَدَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ مَنْزِلٍ يَشْتَوْنَ بِهِ إِذَا شَتَوْا، وَيَكْنَسُونَ فِيهِ إِذَا انْصَرَفُوا مِنْ غَزْوِهِمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَجْمَعَ أَصْحَابُكَ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَلِيَكُنْ قَرِيباً مِنَ الْمَاءِ وَالرَّيِّ وَكَتَبَ إِلَيْهِ بِصِفَتِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ إِنِّي وَجَدْتُ أَرْضاً كَثِيرَةَ الْقَصْبَةِ فِي طَرَفِ الْبَرِّ إِلَى الرَّيِّفِ وَدُونَهَا مَنَاقِعُ مَاءٍ فِيهَا قَصَبَاءٌ، فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ، قَالَ: هَذِهِ أَرْضُ نَضْرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الْمَشَارِبِ وَالْمَرَاعِي وَالْمَخْتَطَبِ وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ أَتِزِلَهَا النَّاسَ، فَأَنْزَلَهُمْ إِيَّاهَا (ص ٣٤٦).

تمثل جملة «طرف البر إلى الريف» كلمات المؤرخ خوزستان المذكور أعلاه، وكذلك التوصيف الأكثر شعرية الذي جاء به ابن خياط عن اختيار موقع الكوفة: «طعن في البرية وخالطت الريف». ومن المرجح أن هذه الجملة تعكس حذر المسلمين الأوائل من الأراضي الريفية والتي يعد سكانها غرباء بالنسبة لهم ومصدر عداء محتمل، في حين تمنحهم الصحراء الألفة ووسائل الهرب إذا استدعت الضرورة.

سبب آخر لانتقاء موقع البصرة يمكن استنتاجه من حقيقة أن جميع المدن العسكرية (المعسكرات) الإسلامية الأولى كانت على مقربة نسبية من مدن كبرى عامرة، كالكوفة بالنسبة إلى الحيرة، والفسطاط لبابل الرومانية، والعقبة الإسلامية للعقبة الرومانية وغيرها. فعلى الرغم من عدم ذكر ذلك صراحة إلا أن قرب البصرة الواضح من الأبله - مدينة الميناء المزدهمة - كان له دورًا في تحديد موقع استقرار المسلمين في جنوب العراق. وإذا كانت هي الأبله ذاتها الواردة في نقوش الآشوريين، فهي مدينة قديمة جدًا بالفعل. أما في حال كانت هي المدينة المذكورة في كتيب للتجارة الملاحية يعود إلى القرن الأول ميلادية ويُعرف باسم «الإبحار في البحر الأحمر» (*Periplus of the Erythraean Sea*) فلقد ظلت مدينة حيوية لوقت طويل جدًا، ووصفت في النص المذكور بأنها «مدينة سوق بمقتضى القانون» ومن المرجح أن النشاط التجاري كان السبب الذي شجع المسلمين على تأسيس قاعدتهم على مسافة قريبة من غرب المدينة.

المسجد ودار الإمارة

وفقًا لابن خياط (ص. ١٢٩)، كان مشروع عتبة الأول ما أن تم الاستقرار على موقع البصرة هو وضع مخطط المسجد، والذي يقال إنه بناه بالقصب، الأمر الذي ذكر أيضًا في مروية البلاذري (ص. ٣٤٦). ربما كان ذلك بسبب أن البصرة لم تكن إلا محطة مؤقتة لحين تثبيت الفتوحات، أو ربما كان أمرًا يعكس شعور عتبة بنهاية العالم الوشيكة، إذ جاءت خطبته الأولى محملة بهذا المعنى، وكانت بدايتها كما يلي:

إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَوَلَّتْ حَذَاءً، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صَبَابَةٌ كَصَبَابَةِ الْإِنَاءِ (الطبري ١، ٢٣٧٩).

ويقول البلاذري (ص. ٣٤٦-٣٤٧): «بنى عتبة دار الإمارة دون المسجد في الرحبة التي يقال لها اليوم رحبة بني هاشم، وكانت تسمى الدهناء وفيها السجن والديوان». وبُنيت الدار كذلك من القصب، ويقال إنه أثناء الغزوات كان قصب المباني يحزم ويخزّن ثم يعاد بناؤها عند العودة. إلا أنه بمرور الوقت، بدأ الناس يحددون ملكية مواقعهم الخاصة ويبنّون منازل صلبة، وحدث ذلك على الأرجح خلال ولاية أبي موسى الأشعري (١٧-٢٩ هـ. ٦٣٨-٦٥٠ م.) الذي قام بتحويل المسجد ودار الإمارة إلى «لبن وطين» وسقفهما بالعشب، وانتَهز الفرصة أيضًا لتوسيع المسجد^١.

إلا أن البلاذري يخبرنا (ص. ٣٤٧-٣٤٨) أن التغييرات الكبرى في مباني البصرة العامة حدثت مع قدوم الوالي زياد بن أبي سفيان (٤٤-٥٧ هـ. ٦٦٤-٦٧٧ م.) وهو الأخ المتبنى للخليفة معاوية. أولاً لأنه اعتبر أنه «لا ينبغي للإمام أن يتخطى الناس»، فنقل دار الإمارة إلى ناحية القبلة في الجهة الجنوبية من المسجد، وذلك ليتكّن من الحركة بين الاثنين من خلال باب في حائط القبلة. كما انبرى زياد في مشروع ضخّم لتوسعة المسجد، ويخبر الوليد بن هشام بن قحذم، المصدر البصري الرئيسي للبلاذري، عن خمسة عناصر لتلك التوسعة، أولها: «لما بنى زياد المسجد جعل صفته المقدمة خمس سواري» وجعل على كلٍ منها أربعة عقود (أقواس) ما يفيد بوجود رواق مغطّى في مدخل المسجد. وتكشف حفريات مسجد الكوفة عن نفس النسق المعماري ما يؤكد أن هذا كان أحد السمات المبكرة جدًا في معمار المساجد، ولاحقًا ظهر الرواق المغطّى في مساجد الواسط والمدينة وصنعاء. ثاني عناصر التوسعة هي أن

١ جدير بالذكر أن رواية ابن الفقيه بهذا الصدد (ص. ٢٣٠) تطابق رواية البلاذري (ص. ٣٤٧).

زيادًا «بني منارته - أي المسجد - بالحجارة»، وجدير بالذكر أن منارة في ذلك الوقت لا تعني مؤذنة (أي الإيوان الذي كان يقام منه الأذان) ولكن هنا تعني إما فنارًا لتمييز الطريق أو وضع حاجز، أو قد تعني برجًا وقد كان البرج في العصور القديمة سمة معمارية شائعة في المزارع والأديرة والقصور والقلاع، وكان يستخدم كنقطة مراقبة أو علامة أو كدليل على الفخامة أو مزيج مما سبق، ومن المنطقي استنتاج أن زياد هنا كان يتبع هذا التقليد.

ثالثًا: كان زياد «أول من عمل المقصورة» وهي الاسم الذي يطلق عادة على المساحة المسوّرة في مقدمة المسجد والتي يستخدمها الوالي أو القائم بأمر المكان ليخطب في الرعية أو ليقم العدل. وعلى ما يبدو أن المقصود هنا أنه كان أول من أدخل المقصورة إلى مسجد البصرة تحديداً وليس في العالم الإسلامي بشكل عام، فالمصادر الإسلامية متفقة أن معاوية كان أول من جاء بهذا المفهوم، باستثناء مصدرين ينسبان الفكرة إلى الخليفة عثمان.

ترتبط المقصورة بالعنصر الرابع في مروية القحزمي، وهي أن زياد «نقل دار الإمارة إلى قبلة المسجد» مما يعني أنه كان يستطيع المرور من مسكنه إلى المسجد مباشرة دون أن يضطر للمرور بين رعيته، ومن المرجح أن يكون ذلك هو ذاته الغرض من مقصورة معاوية بدمشق، رغم أن المصادر الإسلامية تميل إلى تفسير نشأة المقصورة كرد فعل لأي اختراق أمني محتمل، مثل تسلل منشق إلى المسجد أو دخول كلب. خامسًا وأخيرًا يذكر القحزمي أن البناء تم بطوب مجفف وطنين: «وكان بناؤه إياها من لبن وطنين» أو «بالآجر والجص»، وفقًا لعالم النحو والصرف البصري الأصمعي (توفي في ٨٢٨ م). وزاد أنه «سقفه بالساج». غير أن البلاذري يستشهد بشاعر معاصر هو حارثة بن بدر الغداني (توفي بعد ٨٦ هـ/٧٠٥ م). وقد روى عنه يونس بن حبيب النحوي (توفي في ١٥٢ هـ/٧٦٩ م. أو ١٨٢ هـ/٧٩٨ م)، عالم لغة وأديب من البصرة، ليقول إن المسجد بُني بالحجارة وليس الطين. ومن المرجح أن الحجارة استخدمت بالفعل في المواضع المهمة حيث كانت المتانة مطلوبة، وكذلك لأجل بناء معالم المباهاة مثل البرج والذي يتفق القحزمي أن بناءه كان من الحجر.

الملكية الخاصة

تنبع أهمية الجزء الذي خصصه البلاذري للبصرة من سببين، الأول هو طوله البالغ سبع وعشرين صفحة ويعادل ذلك ضعف طول الجزء المخصص للكوفة وثلاثة أضعاف الجزء المخصص لبغداد وعشرة أمثال الجزء المخصص للواسط. السبب الثاني هو إلمامه المفضل بالملكيات الخاصة من منازل وقصور وعقارات وقنوات وحمامات وغيرها. ويمكن ردّ جزء كبير من هذه إلى جد الوليد بن هشام القحزمي، والذي كان موظفًا رفيع المقام لدى الدولة، ومن الواضح أنه قام بشكل ما بتمرير معلومات رسمية إلى أحفاده. فعلى سبيل المثال يورد البلاذري بضمير المتكلم إفادة جد الوليد أنه عندما وُلّي ديوان جند العرب: نظرت في جماعة مقاتلة البصرة أيام زياد فوجدتهم ثمانين ألفا ووجدت عيالهم مائة ألف وعشرين ألف عيل (ص. ٣٥٠). بينما يذكر في موضع آخر (ص. ٣٦٧) أن بقعة معينة من الأرض كانت تعرف باسم «قطيعة عمر بن هبيرة»، وفي مناسبة أخرى (ص. ٣٥١) يقول الوليد أنه وجد بحوزته رسالة كتبها أمين بيت المال المعيقب بن أبي فاطمة بالنيابة عن الخليفة عمر إلى المغيرة بن شعبة بشأن حقل بالبصرة. تخص أغلب هذه التقارير من القحزمي نوعًا معينًا من الأماكن - سواء كان منزلًا أو حقلًا أو شارعًا أو حمامًا أو عقارًا أو قناة، أو ما إلى ذلك - ومالكه، إلى جانب بعض المعلومات الثانوية الإضافية، مثل كيفية

اقتناء المالك للمكان أو العقار، أو التغييرات التي أجراها عليه، أو كيف أورثه لمن بعده. والمعلومات الواردة مفصلة إلى الدرجة التي يمكن بها رسم خريطة توضح من امتلك ماذا وأين ومتى، لكن بما أنني وصلت إلى الحد الأقصى من الكلمات لهذه المداخلة، فلنجعل ذلك موضوع ورقة أخرى.

مصادر

- خليفة بن خياط، تأريخ، تحرير العمري (الرياض، ١٩٨٥).
- أحمد البلاذري، فتوح البلدان، تحرير M.J. de Goeje (لايدن، ١٨٦٦).
- محمد الطبري، تأريخ، تحرير M.J. de Goeje وآخرون (لايدن ١٨٧٩-١٩٠١).

مراجع

- Hoyland, R. 1997. *Seeing Islam As Others Saw It: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam*. Princeton: The Darwin Press, Inc.

آثار البصرة الممتدة للعصر الإسلامي المبكر: تحديات وآفاق

أندرو بيترسون وألستر نورثدج^١

لا يمكننا المبالغة في تقدير الأهمية التاريخية والثقافية للبصرة باعتبارها واحدة من أولى المستوطنات الحضرية في تاريخ الحضارة الإسلامية. مكّنت المعلومات الواردة من المصادر الإسلامية المبكرة المؤرخين من تحديد العديد من ميزات التكوين الاجتماعي للمدينة، بما في ذلك التجمعات القبلية والانتماءات الدينية، وكذلك تحديد بعض السمات المادية مثل مواقع الأسواق ومجاري المياه والمقابر (انظر هوليلاند في هذا الكتاب). إلا أن العلاقة بين المعلومات التاريخية والطبوغرافيا الحديثة للمنطقة ينقصها أحياناً الوضوح. هناك أيضاً مشكلة في أن الكثير من المعلومات التاريخية تأتي من فترات لاحقة وقد تعكس مراحل مختلفة من تطور المدينة. وفي ضوء هذه المشاكل فإن الكشوفات الأركيولوجية تقدم فرصاً مهمة لخلق رؤية أوضح عن التطور المادي والاجتماعي للمدينة.

الموقع

أحد أصعب جوانب فهم أركيولوجيا المدينة هو حركة المستوطنة الرئيسية بين شط العرب والمنطقة الصحراوية إلى الجنوب الغربي. خلال الفترة الساسانية كانت المستوطنة الحضرية الرئيسية في المنطقة تقع في الأبلّة (Απολογὺν Ἐμπορίον) بجوار دجلة العوراء (شط العرب حديثاً). وكان موقع مستوطنة الفترة الساسانية تلك على مقربة من مدينة البصرة الحديثة، أو ربما في الموقع ذاته (Kramers 2000). أما مستوطنة البصرة الإسلامية المبكرة التي تأسست في ثلاثينيات القرن السابع ميلادياً فوقعها الصحراء إلى الجنوب الغربي من الأبلّة، تفصلها عنها منطقة من الأهوار عُرضة للغمر خلال فصل الشتاء. وقد نشأت المستوطنة الإسلامية في المنطقة المحيطة بآثار بلدة صغيرة من العصر الساساني (Vahistabdh Ardashir) معروفة للعرب باسم الخريبة «الخراب الصغير». وخلال القرن العاشر تسببت مجموعة من العوامل، منها هجمات قرامطة البحرين، في انتقال التركيز الاستيطاني مرة أخرى إلى ضفاف شط العرب حيث نمت مدينة البصرة الحديثة حول خور العشار (Longrigg 1979). وفي القرن العاشر وُصفت الأبلّة بأنها

١ أصبح هذا البحث ممكناً بسبب حماسة ودعم وتشجيع قحطان العبيد ومجلس الدولة للتراث والآثار في العراق. ويعرب كاتبها هذه الورقة عن امتنانها للمعهد البريطاني لدراسة العراق على المساعدة اللوجيستية والدعم المالي لمشروع البصرة الإسلامية القديمة. كما قدمت مؤسسة ماكس فان برشن (Max van Berchem Foundation) تمويلاً إضافياً لا يقدر بثمن لدعم المزيد من العمل الميداني. وحصلنا أيضاً على مساعدة كبيرة من جولييت ديسبلات في الأرشفة الوطني التي ساعدتنا في الوصول إلى صور جوية وخرائط وتقارير عن البصرة القديمة..

أكبر من البصرة (Kramers 2000). ومع ذلك فمن المحتمل أن موقع المدينة الإسلامية المبكرة لم يُهجر بالكامل وفي القرن الخامس عشر الميلادي بدأ نشوء بلدة صغيرة في المناطق المحيطة بضريح الزبير بن العوام. وزاد عدد سكان مدينة الزبير الجديدة في القرن الثامن عشر مع وصول بعض القبائل العربية هرباً من تعصب الوهابيين السعوديين (al-Qatrani 2015).

المنشأ

وفقاً للمصادر العربية اختارت القبائل عند استقرارها لأول مرة في البصرة المنطقة الغربية أو الصحراوية من النهر لكونها أقرب لموطنهم الأصلي. من الملاحظ أيضاً أنهم لم يختاروا الاستقرار داخل أو بالقرب من المستوطنة الساسانية الموجودة في أبلّة. ومع احتمال صحة هذه النظرية، فإن قرنر نوتسل قد أشار إلى صعوبة بناء المستوطنات حول ضفاف شط العرب وقتها، حيث كانت مغمورة بالمياه بسبب فيضان نهر دجلة في ٦٢٩، وربما كان ذلك سبباً كافياً لعدم استقرار القبائل العربية هناك (Nutzel 1982b: 149). في الأغلب لم يكن ذلك الفيضان من صنع الإنسان ولكن كان كارثة طبيعية سببها انهيار السدود على طول النهر (Nutzel 1982a: 148)، وربما كان انهيار السدود بسبب الضغط الإضافي الناتج عن تراكم الطمي الذي رفع قاع النهر فوق مستوى السهول المحيطة. في جميع الأحوال، فقد كانت النتيجة أن تكونت بحيرة قبلية شاسعة (بحيرة الحمار) بين الكوفة والموقع الحالي للبصرة، وحتى لو كان ميناء الأبلّة قد نجا من الغمر فمن المؤكد أنه لم يكن موقعاً مرغوباً فيه في ذلك الوقت.

استكشافات

تجدر الإشارة أولاً إلى أن موقع المدينة الإسلامية المبكرة لم يُنس تماماً وكان دائماً معروفاً لسكان المنطقة وزوارها. فعلى سبيل المثال، عندما أتى الأميرال العثماني سيد علي ريس إلى البصرة في ١٥٥٤ ليتولى قيادة أسطول المحيط الهندي العثماني بعد إعدام بييري ريس، قام برحلة إلى أنقاض المدينة المبكرة لزيارة مقابر حسن البصري وطلحة والزبير بن العوام وأنس بن مالك (Sayyid Ali Reis 1577). وفي القرن الثامن عشر جاء المستكشف الألماني الدنماركي كارستن نيبور إلى البصرة في طريق عودته من الهند وقام بزيارة إلى موقع المدينة الإسلامية القديمة. وقد رصد أنقاض المدينة القديمة وتفكّر في أسباب تدهورها (Niebuhr 1780: 297-300). أما أول محاولة منهجية للتوفيق بين الطبوغرافيا الحديثة للموقع والمصادر التاريخية فقد قام بها لويس ماسينيون، وذلك بناءً على زيارة قصيرة في ١٩٠٧ وزيارة أطول في ١٩٤٥ (Massignon 1954). وكان تقريره بمثابة الأساس لمعظم الأبحاث اللاحقة التي حاولت إعادة تخيل المدينة الإسلامية القديمة، ولا يزال يُعدّ أهم الأعمال التي نُشرت في هذا الموضوع. في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين تم إجراء أول بحوثات أركيولوجية للموقع في مواجهة التوسع في مدينة الزبير الحديثة، ونفّذت تلك البحوثات الهيئة العامة للآثار في العراق (انظر أدناه).

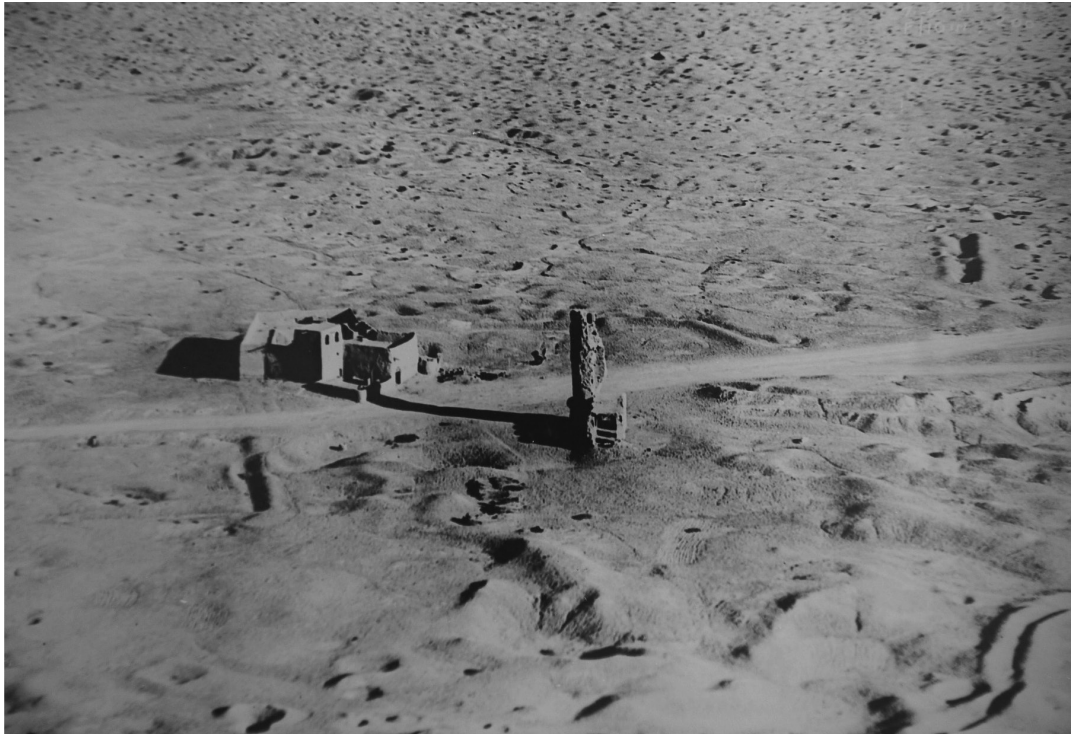
الطبوغرافيا

طبوغرافيا منطقة الزبير الحالية معقدة للغاية وتحتوي على العديد من السمات المميّزة المنتمة لعصور مختلفة. تجدر الإشارة أيضاً إلى أن المنطقة عانت من التدهور البيئي الشديد في الآونة الأخيرة نتيجة لانتشار المنشآت الصناعية والنشاط العسكري بالإضافة إلى التحوّلات المرتبطة بتغير المناخ

(Jabbar & Zhou 2011). ونتيجة لذلك، فإن بعض الخصائص السطحية التي كان يمكن أن تحمل الدلائل على تاريخ الموقع قد اختفت أو دُفنت تحت آثار أحداث لاحقة. لكن لا زالت هناك على الرغم من تلك الصعوبات بعض الخصائص والمعالم الرئيسية التي يمكن أن تساعد في إعادة تحليل الطبوغرافيا القديمة للمدينة.

توجد في المقام الأول مقابر أو أضرحة لشخصيات إسلامية بارزة مثل حسن البصري وطلحة بن عبيد والزبير بن العوام، وهي لا زالت موجودة بشكل أو بآخر إلى يومنا هذا. وتضمني الشهادات التاريخية لشخصيات مثل ابن بطوطة وسيد علي ريس وكارستين نيبور نوعاً من الأصالة والاستمرارية على هوية هذه الأضرحة. يُضاف إلى ذلك مسجد الإمام علي المعروف من خلال المصادر التاريخية المذكورة أعلاه وأيضاً من خلال الآثار الأركيولوجية والآثار الباقية إلى يومنا هذا (انظر أدناه).

الفئة الثانية من الخصائص الموجودة هي القنوات والمجاري المائية. إلا أن تلك إشكاليته أكبر لوجود العديد من قنوات الري والصرف والملاحة التي نشأت في وقت لاحق وتم التنقيب عنها في المنطقة. وقد لاحظ كارستن نيبور منذ ١٧٦٤ أهمية وجود قناة مائية تربط بين الفرات بجوار الكوفة في الشمال والمنفذ المائي في الخليج العربي المعروف باسم خور عبد الله. وفي القرن الثامن عشر عُرفت هذه القناة للسكان المحليين باسم حصفة زادة أو جارة زادة (Hasfe Zaade, Dsjarra Zaade). وعُرف نيبور هذه القناة بأنها قناة بلوكاتو لقديمة التي حُفرت في الفترة البابلية الجديدة، ربما في أوائل القرن السابع قبل الميلاد (انظر دالي في هذا الكتاب). ولاحظ كارستن نيبور أن القناة كانت جافة في ذلك الوقت وجزم بأن يكون ذلك أحد الأسباب وراء هجر المدينة الإسلامية القديمة. ليس أكيداً متى توقفت المياه عن التدفق في القناة، ولكن وجود جسر فوق القناة بالقرب من الكوفة ينتمي إلى القرن الخامس عشر أو أوائل القرن السادس عشر، وهو قنطرة كري سعدة، يوحي بأن القناة كانت لا تزال ممتلئة بالمياه في هذا التاريخ.



الشكل ١.٨. منظر من الجو للمسجد الجامع في البصرة القديمة، التقطه سلاح الجو الملكي البريطاني بتاريخ ٣١ يوليو/تموز ١٩٣٥. Ref.SOP.GSR 5458. من الأرشفة الوطني البريطاني في كيو.

بني ماسينيون على أبحاث نيبور وتمكّن من تحديد قناتين أخريين مذكورتين في المصادر التاريخية، وهما نهر المعقل ونهر الأجانة. تم تحديد الأول من خلال الصور الفوتوغرافية المُلتقطة من الجو، أما الثاني فعثر عليه جيولوجي يعمل مع شركة نفط العراق. تُظهر صور الأقمار الصناعية للموقع من عام ٢٠١٧ المنطقة الواقعة بين بحيرة حمار إلى الشمال وخور الزبير (المعروف سابقًا باسم خور عبد الله)، وترتبط بينهما الآن قناة شط البصرة التي اكتملت في ١٩٨٣. ليس واضحًا إلى أي مدى تقوم هذه القناة الجديدة بتكرار مسار القناة القديمة، إلا أن ماسينيون قد حدّد موقع قناة بالاكوتاس/بلوكاتو إلى الغرب، بين مسجد الإمام علي وبلدة الزبير. كما أنه يضع المستوطنة الأصلية على الضفة الغربية للقناة القديمة، مما يعني إن كان صحيحًا وقوعها على الجانب المقابل للمسجد، وهو أمر مستبعد. تستخدم واحدة من أكثر المحاولات المفيدة لإعادة تخطيط المدينة شبكة القناة كخريطة تحتية لتحديد مواقع الأسواق، إلا أن تلك الخريطة لا تتعدى كونها خريطة مبدئية، وإن كانت علاقات الوصلات بين القنوات صحيحة، فإن شكل تلك الوصلات وعلاقتها بالخصائص الأخرى المعروفة للمنطقة لا زالت ألغاز يصعب حلّها. كانت هناك عدة محاولات أخرى لإعادة تخطيط شكل المدينة القديمة ولكن جميعها واجهت نفس المشكلة، وهي ندرة الأوصاف المادية في المصادر الموجودة (انظر على سبيل المثال Wheatley 2001: 245, fig. 17).

التنقيب الأركيولوجي

قامت الهيئة العامة للآثار بإجراء عمليات تنقيب أركيولوجي في السبعينيات والثمانينيات للتخفيف في المقام الأول من وطأة المد العمراني لمدينة الزبير الحديثة والمنشآت المرتبطة بصناعة البتروكيماويات. تضمنت الهياكل التي تم الكشف عنها مجمعًا سكنيًا كبيرًا يحيط به جدار مُقوّى بدعامات نصف دائرية، وسلسلة من المنازل المزينة بالجص ولكل منها غرفة للصلاة تتميز بأرضية مرتفعة ولوحة جصية مكان المحراب. وكانت ضمن الكشوفات المثيرة للاهتمام معصرة زيت للاستخدام التجاري. وفي ١٩٧٦ تم رسم خريطة توضّح حدود الموقع الأثري لمنع أعمال البناء داخلها. بالإضافة إلى ذلك، أجرت جامعة البصرة عمليات تنقيب بالقرب من الجامع القديم (جامع خطوة الإمام علي) تهدف إلى تحديد أبعاد وعمارة هذا المبنى المهم، ما كشف عن مجمه الهائل وعن وجود أعمدة من الحجر الرملي مصدرها محتجر جبل سنام. كما جرت منذ عام ٢٠٠٦ عمليات تنقيب أخرى داخل منطقة البصرة القديمة، كان معظمها تمهيدًا لمشاريع بناء جديدة.

الخزف

في ١٩٥٢ تم تقديم بعض أجزاء من فرن وقطع خزفية من أطباق وأكواب، عثر عليها في منطقة البصرة، إلى متحف المتروبوليتان للفنون في نيويورك. وبينما كانت ظروف الكشف نفسها غير واضحة، فإن الموقع على الأقل متفق عليه وكذلك التأريخ الذي ينسب القطع إلى القرنين التاسع والعاشر. وتشير الدراسات البتروغرافية التي أجريت على الخزف في ١٩٩٠ إلى أن عدد كبير من المواد الخزفية المشابهة التي عثر عليها في مواقع مختلفة في أنحاء منطقة الخليج والمحيط الهندي قد صنعت أيضًا في البصرة (Mason and Keall 1991). إلا أن ما جاء بعد ذلك من أبحاث (Priestman 2011) يشير إلى احتمال وجود عدد من مراكز الإنتاج الأخرى في جنوب العراق. ومع ذلك تظل الحقيقة أن البحث الأثري عن الخزف في البصرة له أهمية دولية.



الشكل ٢.٨. عواميد من الصخر الرملي، من عمليات تنقيب في سبعينيات القرن العشرين داخل المسجد الجامع (أبريل/نيسان ٢٠١٧).



الشكل ٣.٨. جدار مركّب مع دعائم نصف دائرية تم كشفها في سبعينيات القرن العشرين (أبريل/نيسان ٢٠١٧).

مسوحات ٢٠١٧

في أبريل/نيسان ٢٠١٧ قاما كاتبنا هذا النص برحلة ميدانية أولية إلى البصرة لتقييم الإمكانيات الأركيولوجية وتقدير مدى التهديدات التي تتعرض لها المواقع الأثرية. ولا يزال هذا العمل في طور التنفيذ، لكن أمكننا صياغة عدة ملاحظات أولية ستساعد بدورها في تحديد مسار المزيد من العمل الميداني. أتاح توفر صور القمر الصناعي أكثر من مجرد شرح وتوضيح للخصائص المعروفة، حيث جعل أيضًا



الشكل ٤.٨. مطحنة يدوية مصنوعة من مادة زجاجية سوداء، عُثر عليها في قناة جافة تقع إلى الجنوب الشرقي من المسجد الجامع (أبريل/نيسان ٢٠١٧).

اكتشاف خصائص جديدة ممكناً. استُكمل هذا العمل في يناير/كانون ثاني ٢٠١٨ بمساعدة خريطة ثلاثية الأبعاد عالية الدقة أُنتجت من صور عمودية تم التقاطها من طائرات بدون طيار. وتُستخدم الخريطة لتحديد موقع جميع المواقع الأثرية المعروفة التي تم التنقيب فيها في المدينة منذ سبعينيات القرن الماضي، وكأساس لإدارة الموارد الأركيولوجية وتحديد مسار المزيد من البحوث بما في ذلك عمليات التنقيب.

مراجع

- Creswell, K. A. C. revised and supplemented by J.W. Allan. 1980. *A Short Account of Early Muslim Architecture*. Aldershot: Scolar Press.
- Donner, F. 1984. Tribal settlement in Basra in the first century AH. Pp. 97–120 in T. Khalidi (ed.), *Land Tenure and Social Transformation in the Middle East*. Beirut: American University in Beirut.
- Jabbar, M.T. and X. Zhou. 2011. Eco-environmental change detection by using remote sensing and GIS techniques: a case study Basrah province, south part of Iraq. *Environmental Earth Sciences* 64/5: 1397–407.
- Kramers, J.H. 2000. al-Uballah. *Encyclopaedia of Islam New Edition* Vol. 10: 765–6.
- Longrigg, S.H. 1979. Basra. *Encyclopaedia of Islam New Edition* Vol. 1: 1085–7.
- Mason, R and E. J. Keall. 1991. The ‘Abbāsid glazed wares of Sīrāf and the Baṣra connection: Petrographic analysis. *Iran* 29: 51–66.
- Massignon, L. 1954. Explication du Plan de Basra (Irak). Pp.61–87 in Y. Moubarac ed., *Louis Massignon Opera Minora*. Tome II. Beirut: Dar al-Maaref. [Originally published in Westolische Abhandlungen R. Tschudi, Wiesbaden, Harrassowitz, 1954, pp.155–74].
- Naji , A.J. and Y.N. Ali. 1981. The suqs of Basrah: commercial organization and activity in a medieval Islamic city. *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 24/3: 298–309.

- Niebuhr, C. 1780. *Voyage en Arabie et en autre Pays circonvoisins*. Vol. 2b. Amsterdam and Utrecht: S J Baalde, and Barthelemy Wild.
- Nutzel, W. 1982a. The end of the south Mesopotamian civilization caused by the bursting of the dykes of the Euphrates and Tigris in 629 AD. *Sumer* XXXVII: 144–8.
- . 1982b. The cultivated land of the Shatt al-Arab as described by Ibn Serapion in 900. *Sumer* Vol XXXVII/1.2: 149–51.
- Priestman, S.M. 2011, Opaque glazed wares: the definition, dating and distribution of a key ceramic export in the Abbasid Period. *Iran* 49: 89–113
- al-Qatarani, F.S.A. 2015. The old city of Al Zubair. The emergence and physical reality (1571–1882 Iraq). *Bulletin of Geography*. Socio-economic Series 27: 17–32
- Sayyid Ali Reis. 1577. *Mirat ul Memalik* (The Mirror of Countries). Pp. 329–95 in Charles F. Horne, (ed.), 1917, *The Sacred Books and Early Literature of the East*, Vol. VI: *Medieval Arabia*. New York and London: Parke, Austin and Lipscomb.
- Wheatley, P. 2001. *Places Where Men Pray Together; Cities in the Islamic Lands seventh through the tenth centuries*. Chicago: University of Chicago Press.

الفصل التاسع

التراث المسيحي للبصرة

إريكا هنتر

وُجدت المسيحية في بلاد الرافدين منذ ما يقرب من ألفي سنة. وكان لمدينة خاركس سباسينو ولنشأة البصرة فيما بعد دورًا رئيسيًا في انتشار المسيحية في جنوب بلاد الرافدين، وكذلك على طول طرق التجارة البحرية عبر الخليج الفارسي إلى الهند.

القرن الثاني: الأصول الأسطورية

أصول المسيحية في جنوب بلاد ما بين النهرين يلقها غموض العصور القديمة، إلا أن المنطقة مرتبطة بواحد من أعظم القديسين وهو القديس توما الرسول. ويحكي كتاب أعمال يهوذا توما، الذي كُتب في القرن الثاني باللغة السريانية، كيف قام تاجر اسمه حبان بشراء الرسول توما وإرساله إلى الملك جُندفار الذي كان يبغى حرفيًا لبني له قصرًا جديد في مملكته الهندية.^١ وتبعت رحلة توما نهري دجلة والفرات من سوريا إلى الميناء عند رأس الخليج، حيث انطلق في رحلة ملحمية إلى الهند وقام - حسب الرواية الشائعة - بزرع بذور المسيحية في تلك الأرض البعيدة.

من القرن الثالث إلى القرن الرابع: الأسقفية والتبشير

تظهر أدلة أوضح لوجود مسيحي في جنوب بلاد ما بين النهرين في القرن الثالث حين تم تأسيس أسقفيات بطول وعرض الإمبراطورية الساسانية. وتمشيًا مع وضعها التجاري البارز، أصبحت خاركس سباسينو نقطة انطلاق لتصدير البضائع وأيضًا المبشرين المسيحيين عبر الخليج إلى الهند. وقد سافر ديفيد، أسقف خاركس، إلى الهند للتبشير بالإنجيل.^٢ أما هجرة التجار المسيحيين السوريين من إديسا (أورفة) إلى ساحل مالابار بقيادة توما قانا فيقال إنها وقعت في حوالي سنة ٣٤٥ م. عبر الطريق البحري من جنوب بلاد ما بين النهرين.^٣

١ قام ويليام رايت (William Wright 1871) بتحرير وترجمة النسخة السريانية من كتاب أعمال توما. أما أحدث تقييم علمي وترجمة باللغة الإنجليزية فقام بهما كلايجن (Klijn 1963).

٢ Neill 2004: 41

٣ Gillman & Klimkeit 1999: 167

من القرن الخامس إلى القرن السادس: المطرانية

توجد أدلة تاريخية قوية على الطبيعة المسيحية لجنوب بلاد ما بين النهرين في القرن الخامس وحتى القرن السادس. وأحد أهم مصادر تاريخ المسيحية في بلاد ما بين النهرين بين القرنين الخامس والثامن، أي بما يشمل فترة التحول الساساني الإسلامي، هو كتاب المجامع الشرقية (سينوديكون أورينتال) الذي يضم مجموعة التقارير الصادرة عن المجامع الكنسية العليا التي عُقدت من ٤١٠ إلى ٧٧٥ م.^٤ ويضم على وجه الخصوص توقعات الأساقفة المؤيدة لقرارات المجامع المختلفة، مما يوفر معلومات قيمة حول التوزيع الديموغرافي في الأبرشيات في أنحاء الإمبراطورية الساسانية ثم الدولة الإسلامية فيما بعد.

تشير تقارير عدة مجامع كنسية إلى مشاركة مطارنة فرات ميسان وهي المطرانية التي كان موقعها عند رأس الخليج. أما مجمع مار إسحاق الذي أقيم في سلوقية-قسطيفون في ٤١٠ م. فقد كان وراء تنظيم ترتيبية الأساقفة في الكنيسة «الفارسية».^٥ وكانت الأسقفية الرئيسية الموجودة في العاصمة الساسانية تدار من خلال ست مطرانيات كان لكل منها ولاية على عدد من الأبرشيات التابعة.^٦ ويؤكد إدراج مطرانية فرات ميسان - التي أصبحت البصرة فيما بعد - في قائمة الأسقفيات العليا هذه أن منطقة رأس الخليج كانت قد أصبحت بحلول القرن الخامس مركزاً رئيسياً للمسيحية.

من بين الموقعين على وثائق سينودس مار إسحاق الأساقفة زابدة وميلس وكنا أساقفة في فرات ميسان، وكذلك مراي وكان أسقف كرخ ميسان.^٧ كان زابدة أيضاً من الموقعين على سينودس داديشوع لسنة ٤٢٤ م. الذي انعقد في مركبتا (مركبتا العرب) وهو في الأغلب موقع بالقرب من حراء، ومن أهم ما جاء في هذا السينودس إعلان استقلال الكنيسة «الفارسية» عن بيزنطة.^٨ والموقع هنا عن أسقفية كرخ ميسان هو الأسقف نارساي، مما يشير إلى خلافته لمراي خلال السنوات الأربعة عشر الفاصلة بين الوثيقتين.

وكان من بين الخمسة وعشرين الموقعين الذين حضروا سينودس أكاسيوس في ٤٨٦ م. أسقف يُسمى هاي وهو أسقف فرات أو كرخ ميسان.^٩ وفي سينودس مار باباي الذي أقيم في ٤٩٧ م.، جاء اسم أنفائي ومراي في المركزين الرابع والسادس بين تسعة وثلاثين موقعاً، وجاء وصفهما كأسقف فرات ومطران ميسان.^{١٠} أما سميون، مطران فرات ميسان، فقد ورد اسمه كمشارك في سينودس مار حزقيال الذي عُقد في ٥٧٦ م.، بينما شارك جوزيف في سينودس غريغوري في ٦٠٥ م. وكان يحمل لقب أسقف فرات ومطران.^{١١}

٤ نُقح السينودس في القرن الثامن. انظر تشابوت (Chabot 1902) للاطلاع على النص السرياني والترجمة الإنجليزية للمخطوط Alqosh Syr. 169. للاطلاع على وصف للمخطوطة، انظر فوستيه (Vosté 1929: 63-9).

٥ للاطلاع على وصف تفصيلي لإدراج المطارنة وفقاً للأقدمية والأساقفة الاختصاصيون تحت ولاية كل مطران، انظر Chabot, op. cit., 472، تحت العنوان الفرعي ièges qui sont honorés, place l'un après l'autre, selon la grandeur du ville. الأساقفة الخاضعين لسلطة مطران ميسان في ص. ٤٧٣.

٦ بترتيب الأقدمية: كسكر (جنوب بلاد الرافدين)، بيت لافاط (جنديسابور) في خوزستان (في إيران الحديثة)، نصيبين (في تركيا الحديثة)، فرات وميسان (في رأس الخليج)، أربيل (تحت حكومة إقليم كردستان حديثاً)، كرخ بيت سلوخ (كركوك حديثاً).

٧ انظر ما سبق، ص. ٢٧٤.

٨ انظر ما سبق، ص. ٢٨٥.

٩ انظر ما سبق، ص. ٣٠٦.

١٠ انظر ما سبق، ص. ٣١٥.

١١ المرجع نفسه، ٣٦٨ (حزقيال)، ٤٧٨ (غريغوري).

القرون السادس إلى التاسع: الاستمرارية في خضم التغيير

جاء منتصف القرن السابع بتغييرات ضخمة للكنيسة، مع وصول الفرسان العرب إلى جنوب بلاد الرافدين وتأسيس المعسكر الذي تطور بعد ذلك إلى مدينة البصرة في ٦٣٦ م. في منتصف القرن التاسع نُصّب تيموثي الأول (٧٨٠-٨٢٣ م.) أسقفًا للبصرة، وهو يُعتبر أحد أعظم بطاركة كنيسة الشرق وخاض - بصفته عالمًا دارسًا للفلسفة الأرسطية - سجالًا فكريًا مع الخليفة المهدي، ويشير تنصيبه هذا إلى استمرار الوجود المسيحي في المدينة.

وكان لمطران فرات ميسان، يشوعدناح البصري، مساهمات فكرية مهمة خلال العصر العباسي في منتصف القرن التاسع. وبالرغم من ضياع تاريخه الكنسي إلا أن أجزاء منه قد دمجت في سجلات كاتب القرن الحادي عشر إلياس النصيبيني، والتي تُعتبر مصدرًا رئيسيًا فيما يتعلق بتاريخ الساسانيين. كما يعرض المطران يشوعدناح في كتاب العفة (أو كتاب تاريخ مؤسسي الأديرة في عوالم الفرس والعرب)، وهو كتابه الذي بقي إلى يومنا هذا، معلومات هامة عن تطور الرهبنة في بلاد الرافدين، بدءًا من مار أوغن، الذي عرف بأنه مؤسس الرهبنة في المنطقة في القرن الرابع، وحتى منتصف القرن التاسع.^{١٢}

ويتضمن كتاب العفة أيضًا سردًا نادرًا عن السيرة الذاتية لأحد أعظم الصوفانيين المسيحيين في كل العصور، وهو إسحاق النينوي. وقد وُلد في قطر وعاد، بعد فترة قصيرة كأسقف نينوى، إلى دير ربان شابور في خوزستان، حيث أمضى أربعين عامًا في كتابة أهم أعماله.^{١٣} كيفية تحصيل يشوعدناح على تلك المعلومات الشخصية هو أمر مثير للاهتمام ويشير في جميع الأحوال إلى وجود صلات بين البصرة والخليج. ويشهد الإنتاج الأدبي الغني والأدلة المادية الهامة التي تم العثور عليها في مواقع مختلفة على طول ساحل الخليج العربي على نشاط حياة الرهبان خلال القرنين الثامن والتاسع.^{١٤} لم تظهر - حتى الآن - أدلة أركيولوجية في البصرة، ولكن ما لا شك فيه أن المنطقة كان جزءًا من ذلك الحراك الحضاري.

القرن الثالث عشر: مؤلفات

استمرّ تكريس المطارنة. رُسم سليمان أسقف البصرة في ١٢٢٢ م. وفي نفس العام كان حاضرًا في تكريس بطريرك كنيسة المشرق الكاثوليكية، سبريشوع الرابع (١٢٢٢-١٢٢٤ م.) في بغداد، ما يُعدّ دليلًا على مكانة أبرشيته.^{١٥} وقد كتب سليمان أهم أعماله كتاب النحل^{١٦} ليقدّم من خلاله تاريخًا دينيًا وفلسفيًا للعالم من الخليقة إلى مجيء المسيح الدجال والآخر،^{١٧} متخذًا من النحلة التي يجمع الرحيق من زهرة إلى زهرة مثالًا. ويتكون الكتاب من خمسة وخمسين فصلًا تناقش موضوعات مختلفة منها الخلق والسماء والأرض

١٢ للاطلاع على ترجمة فرنسية لهذا العمل، انظر تشابوت (Chabot 1896: 1-80, 225-91).

١٣ للاطلاع على ترجمة إنجليزية لسيرة إسحاق، انظر بروك (Brock 1997: 260-1).

١٤ للاطلاع على أحدث تلخيص ونقاش حول الأدلة الأركيولوجية للوجود المسيحي في مواقع مختلفة في جنوب بلاد الرافدين والخليج، انظر St. John Simpson 2018.

١٥ Assemani 1728: vol. II, 453. استمد عاصماني هذه المعلومات من سرد تاريخ البطاركة باللغة العربية في كتاب أسفار الأسرار الذي جمعه صليبة بن يوحنا. انظر الطبعة التالية: Gismondi 1896-1899: vol. 2, 116, line 3.

١٦ للاطلاع على ترجمة إنجليزية والنصوص السريانية مأخوذة عن مخطوطات في لندن وأكسفورد وميونخ، انظر واليس بدج (Wallis Budge 1886).

١٧ Brock 1997: 74-5

والملائكة والظلام والجنة، وبطاركة العهد القديم، وأحداث العهد الجديد، وقوائم الملوك والبطاركة، ويوم القيامة.^{١٨}

القرن السادس عشر: أبعاد جديدة

عندما تمكن الإقطاعي المحلي صاحب النفوذ أفراسياب من التخلص من الحكم العثماني الذي بدأ في ١٥٣٤، ثم نصّب نفسه أميراً على شط العرب، ظهرت أبعاد مسيحية جديدة في المنطقة. فقد أقام أفراسياب العلاقات مع البرتغال لتعزيز سلطته، وأنشأ البرتغاليون محطة تجارية كما حصلوا على إذن لبناء دير كرملي على حدود البصرة. ويظهر ذلك في خريطة تم تضمينها في مجموعة *Galérie agréable du Monde* المكونة من سبعة وعشرين مجلداً والصادرة عن الناشر بيتر فان دير آ (١٦٥٩-١٧٣٣) في لايدن (الشكل ١٠٩). تُصوّر الخريطة أيضاً عدداً من الكنائس والمساجد داخل المدينة، مُعنونة باسم «بصورة».^{١٩} وخدم الدير الطوائف المسيحية المحلية بالإضافة إلى البرتغاليين الذين عملوا في تجارة التوابل المربحة مع الهند في أعقاب اكتشاف فاسكو دي جاما في القرن الخامس عشر للطريق البحري إلى ساحل مالابار.

القرن العشرون: الوجود الأنجليكاني

في سنة ١٩١٤، عندما احتلت بريطانيا المدينة بعد معركة البصرة، بُنيت كنيسة مار بطرس الأنجليكانية لثُلثي احتياجات أفراد القوات الحربية والجوية البريطانية في المقام الأول، ولكن الأرض التي بُنيت عليها كانت مملوكة للدولة العراقية.^{٢٠} ثم أدى ظهور شركة نفط البصرة (إحدى الشركات التابعة لشركة النفط العراقية)، ووجود أعداد كبيرة من القوات البريطانية في الأربعينيات، إلى زيادة أعداد مرتادي الكنيسة. وخدمت كنيسة مار بطرس أيضاً السفن الشراعية والتجارية البريطانية التي تتوقف في الميناء.^{٢١} وبالإضافة إلى البريطانيين، شمل الحضور في الكنيسة المسيحيين الهنود والأرمن وأصحاب «الديانات الأرثوذكسية الأخرى».^{٢٢} وظلت العلاقات مع الكنائس المسيحية الأخرى في البصرة جيدة من خلال الزيارات المتبادلة وتبادل المعابدات. وفي ١٩٤٨ كتب القس ماتشيت عن سماع اللغة الأم وكيف بدا له ذلك واقعياً عند حضوره لمسرحية المهد في الكنيسة الأرثوذكسية السورية.^{٢٣} في أبريل ١٩٥٧ تعرضت كنيسة مار بطرس لحريق قضى عليها وقام مكانها ببناء مؤقت.^{٢٤}

١٨ لسرد مطوّل لمحتويات أعمال سليمان، انظر عاصماني (Assemani 1728: vol. III, 309).

١٩ ضَمَّنَ فان دير آ أكثر من ٣٠٠٠ لوحة نحاسية.

٢٠ رئيس الشماسة هارولد بكستون، رسالة بعد زيارته للعراق في نوفمبر/تشرين ثاني وديسمبر/كانون أول ١٩٣١. مراسلات لم تُنشر [JMECA (Jerusalem and Middle Eastern Church Association) Archives, St. Anthony's College, Oxford].

٢١ Adeney 1938-1939.

٢٢ Matchett 1948. وكان ماتشيت المناصب الآتية: «قسيس مدني، البصرة والخليج العربي، وقسيس ميناء، إرسالية البحارة، البصرة».

٢٣ شرحه.

٢٤ تقرير أبريل/نيسان ١٩٥٧، نشر في: Bible Lands. Journal of the Jerusalem and Middle East Church Association.



الشكل ١.٩. Pieter van der Aa. 1729. "Pays de Bassora". *Galérie agréable du Monde*. متاح في المجال العام: http://commons.wikimedia.org/wiki/File:Basra,_Gal%C3%A9rie_agr%C3%A9able_du_Monde.jpg

القرنين العشرين إلى القرن الحادي والعشرين: الكساد/الإيقاف والإحياء

أدت تقلبات الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨١-١٩٨٨) وحرب الخليج الأولى (١٩٩١)، ثم آثار الاحتلال الذي قادته الولايات المتحدة في ٢٠٠٣، إلى تراجع حاد في تعداد أفراد الطوائف المسيحية المقيمة في البصرة. اليوم ينتمي أكبر تجمع من المسيحيين للكنيسة الكلدانية الكاثوليكية، وهي كنيسة تابعة لروما ويرأسها حبيب النوفلي، مطران الكلدان الكاثوليك في البصرة منذ ٢٠١٤، وقد بادر بإنشاء مجموعة واسعة

من المشاريع التي تخدم المسيحيين والمسلمين على حد سواء. يبلغ تعداد الطائفة الكلدانية الكاثوليكية الآن حوالي ٣٥٠ أسرة. كما توجد في البصرة تجمعات كنسية صغيرة من الطوائف الأرثوذكسية السورية والأرثوذكسية الأرمنية، وكذلك الإنجيلية والسبتية (أو المجيئية). تجاهر الكنائس بنشاطها وتتقابل الصلبان مع المآذن في سماء المدينة، في مشهد يستدعي إلى الذاكرة خريطة القرن الثامن عشر التي وردت ضمن رسومات «La Galerie agréable du Monde».

تُعتبر كاتدرائية مريم العذراء الكلدانية الكاثوليكية، التي أُنشئت في ١٩٠٧، أكبر الكنائس وأهمها في البصرة. أما أقدمها فهي كنيسة مار توما (س) الكلدانية الكاثوليكية التي بنيت في ١٨٨٦. وتقع الأخيرة في الحي القديم بالبصرة وقد بُنيت من القرميد، وهي علامة معمارية نادرة بواجهتها التي تتميز بطلبة جدارية مثلثة وإفريز دنطيلي من العاج، وكذلك نوافذ مستديرة على الطراز المعماري الجورجي. كانت الكنيسة ناشطة حتى عام ٢٠٠٤، لكن تسريب السقف للماء جعلها غير صالحة للاستخدام في العبادة. وتم مؤخراً إصلاح السقف وأمكن علاج الأضرار التي لحقت بالجص بسبب المياه. ومع التجديدات يمكن للكنيسة أن تعود إلى الاستخدام، وهو أمر تحقيقه مُستطاع بتكلفة معقولة، كما يأمل القس المقيم أبونا آرام بانو.

ملاحظات ختامية

يُعدّ الوجود المسيحي في البصرة تراثاً ثميناً امتد إلى ما يقرب من ألفي سنة واستمر حتى يومنا هذا، متخطياً العديد من الصعوبات والتقلبات على مدى التاريخ. ويعزز الفكرة العامة حقيقة أن المسيحيين والمسلمين يواصلون العيش جنباً إلى جنب في البصرة، كما كان الحال على مدى قرون عديدة. تم الاعتراف بمساهمة الكنائس وقيمتها في ثقافة البصرة مؤخراً في كتيب أصدرته حملة تراث الأديان، يستعرض تاريخ المؤسسات الدينية في المدينة، ويضم جميع كنائس البصرة مع تفاصيل موجزة عن تاريخها وإنشائها. حرّر الكتيب بسام الواشي تحت إشراف مفقش الآثار في منطقة البصرة فحطان العبيد، وهو يُعدّ برهاناً لا تُقار على التنوع الديني الذي شكل أساس هذه المدينة الواقعة في أقصى جنوب العراق على مدار أكثر من ألفي سنة، ولا يزال راسخاً فيها.

مراجع

- Adeney, A.W. 1938-1939. *Report Bible Lands. Journal of the Jerusalem and Middle East Church Association*. Farnham.
- Assemani, G. S. 1728. *Bibliotheca Orientalis Clementino-Vaticana*. Rome: Propaganda Fide.
- Brock, S.P. 1997. *A Brief Outline of Syriac Literature*. Baker Hill, Kottayam: St Ephrem Ecumenical Research Institute.
- Chabot, J.-M. 1902. *Synodicon orientale ou recueil de synodes nestoriens*. Paris: Imprimerie Nationale.
- Chabot, J.-B. 1896. *Le Livre de la Chasteté, composé par Jésusdenah, évêque de Baçrah. Mélanges d'archéologie et d'histoire* 16/3-4: 1-80, 225-91.
- Gillman, I. and H-J. Klimkeit. 1999. *Christians in Asia before 1500*. Richmond, Surrey: Curzon.
- Gismondi, H. 1896-1899. *Maris Amris et Slibae de Patriarchis Nestorianorum Commentaria*. Rome: C.de. Luigi.
- Klijn, A. F. J. 1963. *The Acts of Thomas*. Leiden: Brill.

- Matchett, E. J. B. 1948. The Basrah and Persian Gulf Chaplaincy. *Bible Lands: Journal of the Jerusalem and Middle East Church Association*. Farnham.
- Neill, S. 2004. *A History of Christianity in India*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Simpson, St.J. 2018. Christians on Iraq's Desert Frontier. *Al-Rafidain* XXXIX; 1–30.
- Vosté, J.-M. 1929. *Catalogue de la Bibliothèque syro-chaldéenne du Couvent de Notre-Dame des Semences près d'Alqos, Iraq*. Rome: P. Geuthner.
- Wallis Budge, E. A. 1886. *The Book of the Bee*. Oxford: Clarendon Press.
- Wright, W. 1871. *Apocryphal Acts of the Apostles*. London: Williams and Norgate.

الفصل العاشر

نشأة المتحف الجديد بالبصرة: تعاون عراقي-بريطاني

جون كُرتيس

تعود أصول مشروع إنشاء متحف جديد في مدينة البصرة إلى لقاء غداء بالمتحف البريطاني يوم ٢٤ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٧. كان الفريق بارني وايت-سبانر قد عُيّن مؤخراً قائداً أعلى للقوات البريطانية في العراق وقائداً عاماً للقوات متعددة الجنسيات بجنوب شرق العراق، وكان من المقرر أن يبدأ خدمته في العراق في فبراير/شباط ٢٠٠٨، واهتم بأن يعرف ما الذي يمكنه عمله للمساعدة في حماية التراث الثقافي العراقي. يمكننا اعتباره فريداً في هذا الصدد بين الشخصيات السياسية والعسكرية والدبلوماسية البريطانية ولهذا فهو يستحق الكثير من التقدير. واستجابة لاهتمامه ذلك، تمت دعوته لحضور اجتماع في المتحف البريطاني مع نيل ماكجريجور وكان وقتها مدير المتحف، والدكتور جون كُرتيس وكان أمين قسم الشرق الأوسط في المتحف، وتشارلز مور، المحرر السابق للدائلي لتلجراف. واقترح خلال الغداء أن الاحتياج الأهم يكمن في تأمين فحص المواقع الأركيولوجية، وكان من المعروف أن العديد منها قد تعرض للنهب الشديد، وأيضاً حماية وتجديد المتاحف داخل المنطقة الواقعة تحت احتلال الجيش البريطاني. ووعد وايت-سبانر بالنظر فيما يمكن فعله بهذا الشأن.

وقد أوفى بوعده، فعُيّن الرائد هوجو كلارك مديراً للمشروع، وقبل موعد انتشار القوات البريطانية بالبصرة في منتصف فبراير/شباط ٢٠٠٨، قام كلارك بمقابلة كُرتيس عدة مرات في أواخر ٢٠٠٧^١.

وسرعان ما قرر كلارك بمجرد استقراره بالبصرة أنه - ولأسباب أمنية ولوجستية - سيكون عليهم التركيز على إنشاء متحف داخل المدينة. وبحلول أواخر فبراير/شباط، كان كلارك قد توصل إلى هوية مدير متحف البصرة، قحطان العبيد، والذي قام - فيما يُعدّ مخاطرة كبيرة بسلامته الشخصية - بزيارة كانت الأولى بين عدة زيارات إلى المقر الرئيسي لقاعدة الجيش البريطاني بالمطار وكان ذلك في أوائل شهر مارس/آذار^٢. في هذا الوقت، كان يتم دراسة ثلاثة مواقع محتملة للمتحف الجديد. الأول كان موقع متحف البصرة الأصلي، والذي تعرض للنهب في أعقاب حرب الخليج الأولى وسُرق نحو نصف محتوياته،

١ في ١٩ نوفمبر/تشرين ثاني ٢٠٠٧ في المتحف البريطاني، وفي ٢٦ نوفمبر/تشرين ثاني ٢٠٠٧ في حفل استقبال في جمعية الشرق الأوسط في شارع بوري بلندن من أجل إطلاق جمعية الصداقة البريطانية-العراقية المتوقف نشاطها، وفي ١١ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٧ في المقر الرئيسي للفرقة الثالثة للجيش (المملكة المتحدة) في بولفورد، ويلتشاير، عندما حضر جون كُرتيس القوات التي كانت بصدد الانتشار في العراق حول حماية التراث الثقافي.

٢ في أول لقاء مع الجيش جاء العبيد بصحبة محمد العزاوي، مفتش آثار البصرة، وكان المفتش الذي سبقه قد قتل بالرصاص، في حضور العبيد، في ١٠ يوليو/تموز ٢٠٠٦.



الشكل ١.١٠. متحف البصرة
السابق المطل على خور
عشار، تم التصوير في ٢٠١٣.

وبعد نقل الباقي إلى بغداد أغلقت أبوابه في عام ١٩٩١^٣. وهو منزل خلاب يقع على الجانب الشمالي من خور عشار في وسط البصرة، يتميز بالعديد من الشرفات والزخارف الخشبية الدقيقة، بُني خلال الفترة ١٩١٩-١٩٢٩ (الشكل ١.١٠) وكان في الأصل مملوكاً لروبين سليان، وهو تاجر تومر يهودي عمل مع الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية، وتحول بعد وفاته ليصبح مقر القنصلية اليونانية في عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٧١ عندما نُقلت تبعيته إلى الهيئة العامة للآثار والتراث العراقية. أما الموقع الثاني المحتمل فكان المبنى المعروف باسم «بيت غيرتود بيل»، والثالث كان قصرًا سابقاً لصدام حسين يُعرف باسم «قصر البحيرة». وأكد العبيد أن المتحف الأصلي كان في حالة متداعية، كما أن حجمه وموقعه (لأسباب أمنية وأسباب تتعلق بإمكانية الوصول) جعلاه غير صالح لهذا الغرض، وتم استبعاده. ولم يتحمس الجانب العراقي لبيت غيرتود بيل، مما أبقى على قصر صدام حسين كاختيار وحيد. وطُرح سؤال ما إذا كان المبنى المحفور عليه الأحرف الأولى لاسم صدام حسين سيكون مقبولاً، وبعد استطلاع الرأي المحلي أكد قحطان العبيد عدم وجود مشكلة في ذلك. وعليه اعتمد قصر البحيرة كمرشح محتمل للمتحف (الأشكال من ٢.١٠ إلى ٤.١٠ في الصفحة التالية).

دُعي جون كُرتيس إلى القدوم للعراق والإقامة مع الجيش في الفترة من ١٢ إلى ١٦ أبريل/نيسان ٢٠٠٨ - للمضي قدماً بالمشروع. وثبت مبدئياً إمكانية فحص المواقع الأركيولوجية والوصول إليها من خلال الطيران بالمروحيات. إذ كان من الممكن في ذلك الوقت العبور بطائرة مروحية فوق الوركاء وأور، والمهبوط في إريبدو، وزيارة أور من قاعدة الإمام علي الجوية^٤. أما فيما يتعلق بالجزء الخاص بالمتحف، فقد حضر قحطان العبيد يوم ١٥ أبريل/نيسان لعقد اجتماع في المقر الرئيسي للجيش البريطاني مع كل من كُرتيس، كلارك، بريدج، هولواي، والنقيب بيرز من الجيش الأمريكي، ومستشار العلاقات العامة ويليام ريف والمترجم «هاش». استطاع بريدج أن يعرض لنا مخططات لقصر البحيرة، والذي كان قد

٣ لا يزال المنزل تابعاً للهيئة العامة للآثار والتراث ويستخدم الآن (أكتوبر/تشرين أول ٢٠١٧) كمكتب لإدارة الآثار.

٤ تألف فريقنا خلال جولة المروحية تلك من الرائد هوجو كلارك والرائد روبرت بريدج (من سلاح المهندسين الملكيين) والرائد توم هولواي (مسؤول إعلامي) واثنين من المصورين.

الشكل ٢.١٠. منظر أمامي
لمتحف البصرة (سبتمبر/أيلول
٢٠١٦).



الشكل ٣.١٠. صورة لمتحف
البصرة مع لافتات جديدة
(فبراير/شباط ٢٠١٣).



الشكل ٤.١٠. منظر خلفي
لمتحف البصرة من مجرى
شط العرب المائي في ٢٠٠٨.





الشكل ٥.١٠. أعمال خشبية مزخرفة فوق الباب الأمامي لمتحف البصرة تحمل اسم صدام حسين وتاريخ ١٩٩٢ في أسفل اليمين (أبريل/نيسان ٢٠١٠).

زاره من قبل، وعرض العبيد على الحضور خطابات من مجلس الوزراء ومن مجلس محافظة البصرة تخوّل باختيار مبنى للمتحف الجديد. واتفق الجميع على أن قصر البحيرة هو - مبدئياً - الخيار الأمثل للمتحف الجديد، واتفقوا على أن الخطوات التالية هي أن يقوم بريدج باتخاذ الترتيبات اللازمة من أجل قيام سلاح المهندسين الملكيين بوضع مخطط تفصيلي للمبنى، ويقوم قحطان العبيد بزيارة المبنى في أقرب وقت ممكن.

ويعتبر قصر البحيرة أحد القصور العديدة التي بناها صدام حسين في أنحاء العراق، والتي يبدو أن بعضها تم تمويله بطريقة غير مشروعة من خلال برنامج النفط مقابل الغذاء (OIP).^٥ يقع القصر على أطراف البصرة، على بعد عدة كيلومترات أدنى مجرى خور عشار. وبعد غزو العراق في ٢٠٠٣، استخدمه الجيش البريطاني كقاعدة عسكرية قبل أن ينسحب إلى مطار البصرة في ٢٠٠٧. ويتكون المدخل الأمامي للقصر من رواق مَعَمَد أمامه بحيرة صناعية صغيرة، بينما يطل الجزء الخلفي من المبنى على مجرى شط العرب المائي. وتحتوي الأعمال الحجرية والخشبية المزينة لواجهة المبنى على نقوش تذكارية عديدة تحتفي بصدام حسين (الشكل ٥.١٠)،^٦ أما الجزء الداخلي فمزين ببذخ بخشب منحوت وجص مطلي (الشكل ٦.١٠ في الصفحة التالية)، والكثير من هذه النقوش عبارة عن أعمال يدوية لحرفيين شال إفريقيين، على الأرجح من المغرب. ويتكون الطابق الأرضي من مساحتين كبيرتين وثلاث مساحات أصغر ستكون جميعها صالات عرض نموذجية للمتحف، مع مساحة عرض إجمالية تتجاوز الألف متر

٥ وكانت الأمم المتحدة قد أسست مكتب برنامج النفط مقابل الغذاء عام ١٩٩٥ للسماح للعراق ببيع النفط في السوق العالمية بشرط استخدام العائدات لشراء الأغذية والدواء للتخفيف من معاناة المواطنين العراقيين بعد فرض العقوبات. لكن على ما يبدو أن قصر البحيرة قد بني في عام ١٩٩٢ (انظر الشكل ٥.١٠). وقد قام صدام حسين «بإهداء» بعض هذه القصور لمختلف الزعماء الأجانب، وهكذا تم تقديم قصر البحيرة إلى العاهل الأردني الملك حسين، إلا أن الأخير لم يزره أبداً.

٦ العديد من هذه القصور تم نهبا وإلحاق أضرار بالغة بها في ٢٠٠٣، وقصر البحيرة هو واحد من القصور القلائل التي احتفظت بحالتها نسبياً. وبذلك، فهو يُعد شاهداً على مرحلة معينة من التاريخ العراقي، وعلى الرغم من ارتباطه باسم صدام حسين (علماً بأنه لم يسكنه قط) إلا أنه يستحق الحفظ كشيء قائم بذاته. ولذا تبنت السلطات العراقية وجهة النظر التي تؤيد الحفاظ على النقوش الخاصة بصدام على المبنى كما هي.

الشكل ٦.١٠. نقش من الجص متعدد الألوان بقصر البحيرة.



مربع، وقُدِّرَت هذه كمساحة مثالية لإقامة متحف إقليمي هام، كما يضم المبنى أيضًا مساحات أخرى تُعتبر أساسية لإدارة متحف حديث.

أثبتت هذه الزيارة المبدئية جدوى المشروع. فقد تأكدنا من الإمكانية اللوجستية لزيارة بعض أو جميع المواقع الموجودة على القائمة باستخدام المروحيات، طالما لدينا الموافقة الكاملة من الهيئة العامة للتراث والآثار. كما حددنا المبنى قد يكون مناسبًا لمتحف جديد بالبصرة. وكانت الخطوة التالية هي تقديم هذه المقترحات للمسؤولين العراقيين والمجتمع الدولي ليلم مناقشتها، على أمل إقرارها.

وعليه، تم تنظيم ورشة عمل بالمتحف البريطاني يوم ٢٩ أبريل/نيسان ٢٠٠٨ تحت عنوان «حماية التراث الثقافي في جنوب العراق». حضر الورشة المغلقة حوالي ستون شخصًا ممن لديهم اهتمام خاص بالتراث الثقافي العراقي، وكان حضور أربعة من الزملاء العراقيين أمرًا باعثًا على الرضا بشكل خاص.^٧ وخلال الورشة التي ترأسها نيل ماكجريجور، قدم كل من آندي برنهام، وزير الثقافة والإعلام والرياضة، وبهاء مياح من الهيئة العامة للآثار والتراث، والفريق وايت-سبانر، كلمات افتتاحية. ثم عرض الرائد هوجو كلارك تصورًا عامًا للمشروع. وقدم كل من الرائد روبرت برّيدج وجون كُرتيس مزيّدًا من التفاصيل عن مشروع متحف البصرة والمشروع الآثاري على التوالي،^٨ وتلا ذلك مناقشة وتحليل مع الحضور. في فترة ما بعد الظهيرة كان هناك نقاش مثير حول دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية، أداره الدكتور سعد إسكندر، ثم قدم كل من الفريق وايت-سبانر، وبهاء مياح، والدكتور مفيد الجزائري، الملاحظات الختامية. وقد أعرب المشاركون العراقيون عن دعمهم الصادق لجزئي المشروع المقترح: متحف البصرة والمسح الآثاري. وبهذا التكليف الصادر من ورشة العمل، وبموافقة كاملة من الهيئة العامة للتراث والآثار، تم وضع خطة المرحلة التالية والرئيسية من المشروع لتكون في الفترة من ١ إلى ١٠ يونيو/حزيران ٢٠٠٨.

٧ الأربعة هم: الدكتور مفيد الجزائري (رئيس اللجنة الثقافية بمجلس النواب العراقي)، السيد بهاء مياح (مستشار وزير السياحة والآثار العراقي) الدكتور إسماعيل حجارة (المستشار الثقافي لفريق إعادة إعمار الحلة)، الدكتور سعد إسكندر (مدير دار الكتب والوثائق الوطنية).

٨ قدمت كل من الدكتورة مارجريت فان إس والبروفسورة إليزابيث ستون مساهمات قيمة في مناقشة المشروع الآثاري.

وتألفت هذه المرحلة من زيارة إلى العراق قام بها الدكتور جون كُرتيس والدكتور بول كولنز من المتحف البريطاني، والدكتورة مارجريت فان إس من المعهد الألماني للآثار في برلين، والبروفيسورة إليزابيث ستون من جامعة ستوني بروك بنيويورك. كانت هذه المهمة ذات غرض مزدوج: إجراء تقييم حالة للمواقع الأركيولوجية المختارة، والمزيد من البحث في إمكانية استخدام قصر البحيرة كموقع لمتحف البصرة الجديد. وقد ظل الرائد هوجو كلارك مديرًا للمشروع نيابة عن الجيش البريطاني، وكان حاضراً خلال جميع المراحل. أجريت عمليات فحص المواقع على مدار ثلاثة أيام (من ٥ إلى ٧ يونيو/حزيران)، من خلال الطيران من محطة الإمام علي الجوية على متن مروحية مرلين. وانضم إلينا ثلاثة من الزملاء العراقيين وهم: قيس حسين رشيد، رئيس عمليات التنقيب في الهيئة العامة للآثار والتراث، محسن حسن علي، نائب مدير المتحف الوطني العراقي، عبد الأمير الحمداني. تمكنا من فحص ثمانية مواقع مختلفة، وهي أور، أريدو، تل عبيد، الوركاء، لارسا، وتل العويلي، لجش، تل اللحم. وأفردت تغطية شاملة لهذا العمل في الدورية الأكاديمية «العراق» (Curtis et al. 2008). وفي يونيو/حزيران ٢٠٠٨، قنا بزيارة قصر البحيرة (وهي أول زيارة لي للمبنى)، وإلى جانب قيامنا بتفقد المبنى، التقينا هناك بوفد عراقي وانضمت إلينا أيضاً فيونا جيب، نائبة القنصل العام البريطاني.^٩

وأجريت مناقشة بناءة وواسعة النطاق أعرب فيها المسؤولون من الهيئة العامة للآثار والتراث عن دعمهم المتقد للمشروع، ولكن كان من الواضح أنه سيتعين اتخاذ إجراءات رسمية أخرى قبل إقرار المشروع. وأبدى نائب رئيس الوزراء العراقي على وجه الخصوص، السيد صدوق سلطان، تأييده للمشروع مع إصراره على ضرورة اتباع الإجراءات السليمة. فكان يجب تكوين فريق للمشروع لتنفيذ كل الخطوات المطلوبة والمضي قدماً بالخطوة الموضوعية. كما كُتبت هناك إشكالية إيجاد مصادر محتملة للتمويل.

مع انتفاء احتمال وجود أي تمويل حكومي بريطاني، وانسحاب الجيش البريطاني من العراق في أوائل عام ٢٠٠٩، تم تعليق المشروع. إلا أنه أعيد إحيائه في الفترة من ٢٧ يونيو/حزيران إلى ٣ يوليو/تموز ٢٠٠٩، عندما تمكن كل من جون كُرتيس وبول كولنز من زيارة العراق مرة أخرى والإقامة في القنصلية البريطانية في قاعدة البصرة الجوية. كانت النية أن يرافقهما الرائد هوجو كلارك، ولكن لم يكن ذلك ممكناً خلال الرحلة. ولسوء الحظ، لم يكن من الممكن أيضاً السفر إلى البصرة خلال هذا الوقت لأن العواصف الترابية أعاقت تحليق المروحيات، ولكن ما تمكنا منه هو عقد عدد من الاجتماعات المفيدة جداً في القاعدة الجوية. فالتقينا بقحطان العبيد (مرتين)، وكذلك السيدة زهرة حمزة البجاري، عضوة مجلس محافظة البصرة ورئيسة لجنة التراث الثقافي والآثار، ومع مسؤولين من شركة الهندسة المدنية البريطانية «موت مكدونالد». وتم إبلاغنا أن أعضاء مجلس الوزراء ما زالوا ينظرون في إمكانية استخدام قصر البحيرة كموقع لمتحف ولم يستبعدوه، ولكنهم في الوقت ذاته، كانوا أيضاً يبحثون فكرة استخدام قصر النقيب الواقع على الكورنيش كموقع محتمل. وعُرض اقتراح أن تسعى الهيئة العامة للآثار والتراث ومجلس المحافظة في تقديم الطلبين لاستخدام قصر البحيرة وقصر النقيب إذ من المؤكد أن يتم اختيار أحدهما ليكون موقع المتحف. كانت أجواء الاجتماعات إيجابية للغاية، وأبدى كل من قحطان

٩ ضم الوفد: قيس حسين رشيد، محسن حسن علي، قاسم عبد الحميد البصري (مدير التعاون الثقافي)، محمد حسوني ناصر (مفتش الآثار في منطقة البصرة)، قحطان العبيد، السيدة أزهار جعفر هاشم (مديرة الهندسة والصيانة في البصرة)، صدوق سلطان (أبو مريم) وكان على ما يبدو ممثل رئيس الوزراء المالكي في البصرة والمسؤول عن مستقبل القصور الملكية.

العبيد والسيدة زهرة البجاري حماساً شديداً تجاه إنشاء متحف جديد. واتفق الجميع على أن القرار النهائي لاختيار المبنى يجب أن يأتي من الجانب العراقي.

في يوليو/تموز ٢٠٠٩، تلقينا أخباراً طال انتظارها مفادها أن كلا من رئيس الوزراء نوري المالكي ومجلس محافظة البصرة وافقا على طرح قصر البحيرة كموقع لمتحف البصرة الجديد. وكانت هذه النتيجة الممتازة تكميلاً للمساعي المستمرة وغير المتوانية التي قام بها قحطان العبيد وزملاؤه الآخرون في العراق.

وبناء على هذه التطورات الجديدة تمت الدعوة إلى اجتماع في المتحف البريطاني يوم الخميس ٢٤ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٩ لمناقشة كيفية المضي قدماً بالمشروع.^{١٠} وكانت هناك حماسة كبيرة لدعم ما يمكن اعتباره مشروعاً بريطاني الأصل، لكن كان واضحاً أيضاً أن أي تمويل يجب أن يكون مصدره من القطاع الخاص وليس الحكومة البريطانية. وقدّرنا وقتها أننا بحاجة إلى حوالي ١٠ مليون جنيه إسترليني لترميم قصر البحيرة وتحويله إلى متحف. لكننا اتفقنا على تبني مقاربة عملية بما يعني جمع مبلغ ٦٥٠ ألف جنيه إسترليني من داخل المملكة المتحدة كمبلغ مبدئي للمشروع في العمل، ومن ثم مطالبة الحكومة العراقية بتغطية باقي التكاليف. وكلف جون كرتيس كذلك بتشكيل لجنة توجيهية برئاسة الدكتور صلاح الشيكلي، سفير العراق السابق بالمملكة المتحدة.

عقدت اللجنة التوجيهية اجتماعها الأول في ٢ ديسمبر/كانون أول ٢٠٠٩.^{١١} واقترح فيه أن يزور أعضاء اللجنة مدينة البصرة في أقرب وقت ممكن لمناقشة المشروع مع قحطان العبيد ونائبة القنصل البريطاني أليس والبول. في غضون ذلك الوقت، عُقد اجتماع آخر للجنة التوجيهية، بحضور أليس والبول وتحت رئاسة السير ترنس كلارك، في ٢٣ فبراير/شباط ٢٠١٠.

في ٢٠ أبريل/نيسان ٢٠١٠، وجدت نفسي في مائدة عشاء حالفني الحظ فيها بالجلوس إلى جانب كلير بينجتون من شركة BP (شركة النفط البريطانية)، وانتهزت الفرصة لأحكي لها عن مشروع متحف البصرة. وأبدت كلير اهتماماً وتشجيعاً بالغين. وكان قحطان العبيد متواجداً في لندن في ذلك الوقت، برفقة أربعة من زملائه العراقيين من أجل حضور مؤتمر، فقامت معه بزيارة كلير يوم ٢٣ أبريل/نيسان في المقر الرئيسي للشركة في ميدان سانت جيمس بلندن. وفي بريد إلكتروني لاحق، تطرقت كلير إلى احتمالية أن تكون مؤسسة BP قادرة على تقديم مساهمة لدعم المتحف، واقترحت أيضاً تأسيس «أصدقاء متحف البصرة» كجمعية خيرية مسجلة في المملكة المتحدة، على أن يتم إطلاق الجمعية رسمياً في حفل استقبال بالمتحف البريطاني. إذ ستكون الجمعية بمثابة قناة يمكن من خلالها للمؤسسات مثل BP تقديم دعم مادي للمشروع.

١٠ حضر اللقاء كل من: نيل ماكجريجور (رئيس المتحف البريطاني)، أليس والبول (حاملة وسام الإمبراطورية ونائبة القنصل البريطاني في البصرة)، فينيشا سميث (من مكتب الشؤون الخارجية والكونولث)، كيث نيكول (من وزارة الثقافة والإعلام والرياضة)، ديفيد ستيفنز (من وزارة الدفاع)، أندي ستيفنز (من المكتبة البريطانية)، جين ويكس (من المجلس الثقافي البريطاني)، الرائد دومينيك هايكاوا (من الجيش البريطاني، الفرقة الثالثة)، لمياء الكيلاني فير (أكاديمية عراقية مستقلة)، جون كرتيس، كاتي تشايلدرز، جستن موريس، بول كولنز، هانا بولتون، أنجيلا سميث (من المتحف البريطاني).

١١ ترأس الاجتماع الدكتور شيخلي وكان جون كرتيس سكرتير الاجتماع وقامت أنجيلا سميث بتدوين الملاحظات، بحضور: السير ترنس كلارك، الدكتورة لمياء الكيلاني، الرائد هوجو كلارك.

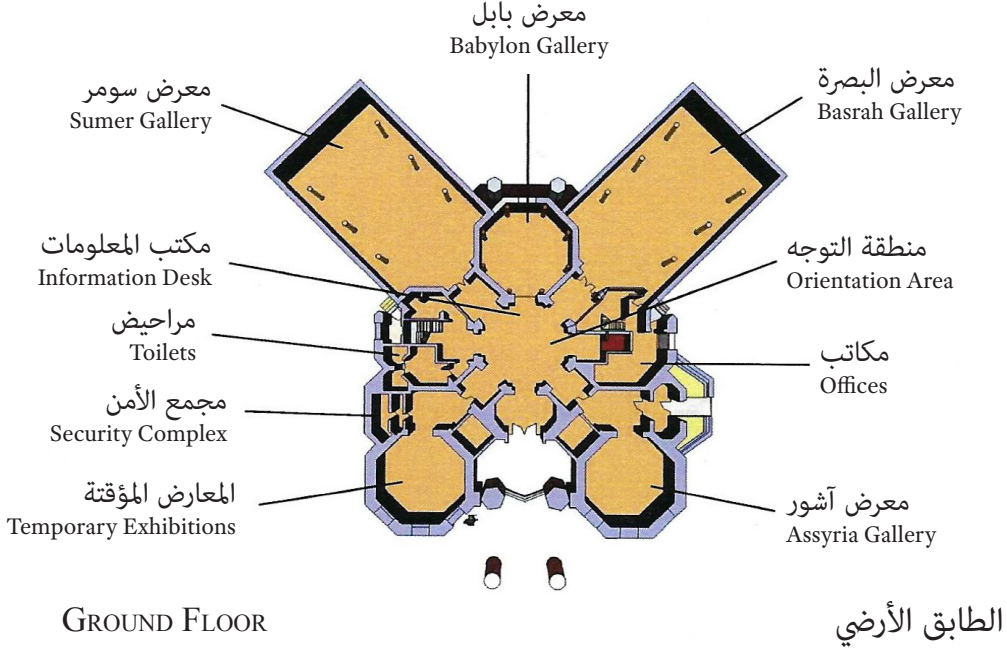


الشكل ٧.١٠. مجلس أمناء جمعية أصدقاء متحف البصرة والزملاء العراقيون في موقع المتحف في أبريل/ نيسان ٢٠١٠. من اليسار: قاسم عبد الحميد البصري، د. لمياء الكيلاني، د. جون كُرتيس، السيدة زهرة حمزة البجاري، فخامة السيدة أليس والبول، السير ترنس كلارك، فحطان العبيد.

وقام أعضاء اللجنة التوجيهية بزيارة البصرة - الزيارة المشار إليها أعلاه - في الفترة من ٢٧ أبريل/ نيسان إلى ١ مايو/ أيار ٢٠١٠ (الشكل ٧.١٠).^{١٢} وخلال الاجتماعات، عبّر كل من مع الدكتور شلتاغ عبود المياح محافظ المدينة والأستاذ الدكتور صالح نجم رئيس جامعة البصرة عن حماسهما ودعمهما الحار لهذا المشروع. وتم التأكيد على تخصيص قصر البحيرة لمتحف الجديد بموافقة مجلس المحافظة ومجلس الوزراء. وأعرب الجانب العراقي عن أمله في أن تتم أعمال التجديد والإحلال اللازمة في المستقبل القريب. وتم التشديد على أن دور اللجنة التوجيهية هو التعاون مع الهيئة العامة للآثار والتراث لتطوير متحف البصرة الجديد الذي سيصبح مشروعاً عراقياً في المقام الأول، هذا وسوف يدار المتحف بالكامل من قبل الجانب العراقي. وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك أي تمويل متوفرة بالفعل في ذلك الوقت، لكن اللجنة التوجيهية كانت تقوم بدور نشط في محاولة جمع بعض التمويلات الضرورية. وأبدى محافظ البصرة على وجه الخصوص امتناناً عميقاً للجهود البريطانية للمساعدة في إنشاء متحف جديد يليق بالبصرة، وأشار إلى أن الأجيال القادمة سوف تنظر إلى هذا المشروع باعتباره مشروعاً ذا أصل بريطاني، بالطريقة نفسها التي ينظر بها إلى «الجسر الأحمر» بالبصرة.

كما أتاحت هذه الزيارة الفرصة لأعضاء اللجنة التوجيهية والقنصل العام والزملاء العراقيين لزيارة قصر البحيرة، وكانت تلك الزيارة الأولى بالنسبة للبعض وفرصة لمعاينة إضافية للبعض الآخر. وكان هناك إجماع على أن القصر سيكون متحفاً رائعاً، فحجمه هو بالضبط الحجم المطلوب مع وجود إمكانية للتوسع، بالإضافة إلى تمتعه بموقع جذاب على ضفاف شط العرب. علاوة على ذلك، فهو من الأماكن التي لم تُهَبْ أثناء حرب العراق وكانت حالته جيدة بشكل لافت. العيب الوحيد الملحوظ كان الوجود المكثف للأحرف الأولى لاسم صدام حسين في النقوش المزينة للمبنى، ولكن تم الاتفاق على أنها جزء من تاريخ الموقع ولا ينبغي إزالتها. والتقى الفريق أيضاً بكل من إيان إليوت وبيتر هانت من شركة موت مكدونالد والتي تبرعت بالقيام بعمل مسح تفصيلي جديد للمبنى وتحليل للتكلفة. وبلغت تقديرات

١٢ ضمت المجموعة السير ترنس كلارك والدكتور جون كُرتيس والدكتورة لمياء الكيلاني فير. وقد تمت الزيارة بفضل منحة سخية من وزارة الثقافة والإعلام والرياضة. وكان مضيفانا في البصرة هما أليس والبول (نايبة القنصل العام) ودوج مكميلان (القنصل العام) وقد نظما أيضاً اجتماعات في البصرة مع السيدة زهرة البجاري وقاسم عبد الحميد البصري وفحطان العبيد.



الشكل ٨.١٠. مخطط المساحة الخاص بمتحف البصرة الجديد الذي أعده قحطان العبيد في ٢٠١٠.

التكلفة الجديدة - التي أعدها شركة موت مكدونالد في الوقت المتفق عليه - ٢,٩٧٢,٥٦٣ دولارًا، ويتضمن ذلك تكلفة صناديق العرض.

وبكرم بالغ قام كريستوفر ماکول، من المجلس القانوني الملكي، دون مقابل، بإعداد الأوراق المطلوبة للتقديم من أجل التسجيل كمؤسسة خيرية، فكانت جاهزة خلال الاجتماع التالي للجنة التوجيهية، والذي عقد في ٣٠ يوليو/تموز ٢٠١٠، وأعد أيضًا وثيقة بعنوان «أهداف الجمعية الخيرية». وقد تأسست جمعية أصدقاء متحف البصرة خلال الاجتماع التالي للجنة التوجيهية، في ٩ أغسطس/آب ٢٠١٠ وخلال خريف ٢٠١٠، قضى قحطان العبيد شهرًا في المتحف البريطاني، قام خلاله برسم مخطط مساحة ووضع خطة عمل للمتحف الجديد.

وفي يوم ١ ديسمبر/كانون أول ٢٠١٠. تم إطلاق الجمعية الخيرية الجديدة في حفل استقبال بمكتبة الملك بالمتحف البريطاني، برعاية شركة BP، والتي قامت شاكرا بحجز المتحف لهذه الأمسية، وكان من

١٣ تشكل أول مجلس أمناء من السير ترنس كلارك رئيسًا، وجون كرتيس سكرتيرًا، وليم الكيلاني فير، وصالح الشخيلي، وكبير بينجتون، وأليس والبول (حاملة وسام الإمبراطورية). وتمت استشارة شركة RPS للطاقة لاقتراح أمين صندوق، وفي الوقت المتفق عليه تم تعيين ليان بوتشر كعضوة مجلس أمناء وأمينه صندوق.



الشكل ٩.١٠. السير ترنس كلارك والدكتور قيس رشيد يوقعان مذكرة التفاهم في ١ ديسمبر/كانون أول ٢٠١٠ في المتحف البريطاني.

بواعث البهجة أن سبعة من الزملاء العراقيين تمكنوا من الحضور^{١٤} وخلال الحفل ألقيت الكلمات كل من نيل ماكجريجو وقيس رشيد وبوب ددلي، الرئيس التنفيذي لشركة BP، والسير ترنس كلارك. ووزعت كتيبات تشمل مخطط مساحة للمتحف (الشكل ٨.١٠) وخطة تشغيل، بالإضافة إلى مناشدات تدعو الحضور للتبرع لتمويل المشروع. كما تم توقيع مذكرة تفاهم بين الهيئة العامة للآثار والتراث وجمعية أصدقاء متحف البصرة وممثل الجهتين قيس رشيد والسير ترنس كلارك، حيث وعد الطرفان بتقديم التعاون المطلوب لإنشاء المتحف الجديد (الشكل ٩.١٠). كما أعرب المعهد البريطاني لدراسة العراق وجمعية الصداقة البريطانية-العراقية عن دعمهما للمشروع. وبعد فترة وجيزة من الإطلاق الرسمي، تلقت الجمعية الخيرية عددًا من التبرعات السخية^{١٥} وبذلك يمكننا من بدء المشروع بأصول تبلغ حوالي ٣٥٠ ألف جنيه إسترليني.

كان هناك حفل إطلاق آخر للجمعية الخيرية في البصرة وذلك في ربيع عام ٢٠١١، ونظمتها أليس والبول وحضره مسؤولون من مجلس محافظة البصرة ورئيس جامعة البصرة والسفير البريطاني جون جنكينز.

١٤ هم قيس حسين رشيد (لأن رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة للآثار والتراث)، والدكتورة أميرة عيدان (المديرة العامة للمتاحف العراقية)، والسيد سعد خلف عوض الموسوي، وقحطان العبيد، وقاسم عبد الحميد، وجاسم الحمداني (مفتش الآثار بالبصرة)، وأباد حسن عابد (مدير الشؤون القانونية بالهيئة العامة للآثار والتراث)، والسيدة زهرة حمزة البجاري، والسيد علي الزبيدي (من مكتب المحافظ بالبصرة).

١٥ المانحون: شركة BP مبلغ ٥٠٠ ألف دولار، شركة بتروفاك مبلغ ٢١,٧٣٥ جنيهًا إسترلينيًا، صندوق تشارلوت بونهام كارتر مبلغ ٤,٠٠٠ جنيه إسترليني، شركة IPBD المحدودة مبلغ ٣,٠٤٨ جنيهًا إسترلينيًا. زائد عدد من التبرعات الأصغر من الشركات والأفراد: شركة بلس براندز مبلغ ألف جنيه إسترليني، الدكتورة ستيفاني دالي مبلغ ٥٠٠ جنيه إسترليني، السيد ر ويلسون مبلغ ٢٠٠ جنيه إسترليني، السيد أمين مبلغ ١٠٠ جنيه إسترليني، السيدة جوان ماكأيفر مبلغ ١٠٠ جنيه إسترليني، السيدة جوديث نوجي مبلغ ٥٠ جنيهًا إسترلينيًا. شكر خاص مايكل تاونسند من شركة BP الذي أبدى اهتمامًا كبيرًا بالمشروع في جميع مراحله.

ورافق قحطان العبيد الزوار في جولة إرشادية للمبنى. وكان أحد التعقيدات الأولية أن القصر في ذلك الوقت كانت تشغله هيئة استثمار البصرة، وذلك على الرغم من قيام مجلس محافظة البصرة بتخصيص قصر البحيرة لاستخدامه كمتحف. لكن هيئة استثمار البصرة أخلت

المبنى قبل نهاية عام ٢٠١١، وبعد ذلك قرر مجلس الأمناء تقسيم أعمال إعداد الموقع إلى شقين أساسيين، وتم التعاقد مع شركة الإنشاءات العراقية «بر الأمان» للقيام بالعمل المطلوب.^{١٦} نُفذ الشق الأولي في ٢٠١٢ تحت إشراف عليه المهندس علي عبد الحسين من شركة موت مكدونالد، وشمل إغلاق النوافذ بالطوب (لأسباب أمنية) وتركيب بوابات أمن من الصلب، وتطهير المصارف وأنياب الصرف، وتجديد دورات المياه، وتنظيف المنطقة المحيطة بالمبنى. وتركيب مصابيح أمنية حول الموقع.

قام جون كرتيس ولياء الكيلاني بتفحص العمل في الفترة من ١٢ إلى ١٥ فبراير/شباط ٢٠١٣، وأبدى انبهاراً شديداً بحجم العمل الذي تم إنجازه حتى ذلك الحين وجودته. كما أُتيحت لهما فرصة مقابلة السيد صباح البزوني، رئيس مجلس محافظة البصرة، والسيدة زهرة البجاري، التي أبلغتنا بأن مجلس محافظة البصرة قام بتخصيص ٣,٧ مليون دولار للمشروع، منها مليون دولار لصناديق العرض.

انقطع العمل لفترة بعد ذلك، حتى عام ٢٠١٥، انتظاراً للتمويل الذي وعد به مجلس محافظة البصرة والذي تأخر بسبب صعوبات تخص الموازنة في العراق. ونتيجة لذلك، وبموافقة قحطان العبيد والسلطات العراقية، قررت جمعية أصدقاء متحف البصرة في ٢٠١٥ استخدام ما تبقى معهم من تمويلات لتجديد وافتتاح قاعة عرض واحدة وقاعة تعليمية بالمتحف، أملين أن افتتاح جزء من المتحف سيشجع قدوم المزيد من الدعم اللازم لبقية المشروع. وتقرر تخصيص قاعة العرض تلك لتاريخ البصرة وضواحيها، وسُميت قاعة البصرة. وبحلول ذلك الوقت كانت شركة موت مكدونالد قد أغلقت مكتبها في البصرة لكن لحسن الحظ قام بيتر هنت بملاً هذا الفراغ. وبيتر هانت هو مؤسس وأحد مديري شركة إتش دبليو إتش والشركاء، وهي شركة هندسة مدنية لها مكتب في البصرة، وقاموا شاكرين بتكملة هذا الشق من المشروع دون مقابل. ثم أسند الشق الثاني من أعمال إعداد الموقع إلى شركة بر الأمان مرة أخرى، وتم طلب واجهات العرض الزجاجية من شركة راير في ألمانيا.

قامت شركة بر الأمان بتنفيذ الشق الثاني من أعمال التجديد والإحلال في أواخر عام ٢٠١٥ وبدايات عام ٢٠١٦، وشملت هذه الأعمال إصلاح واستبدال الرخام والزخارف الجصية أينما كان ذلك ضرورياً، وإصلاح وتجديد النقوش الخشبية داخل وخارج المبنى، وطلاء الجدران، وتركيب صناديق الجديدة وإمدادها بالكهرباء، وقد وصلت صناديق العرض إلى المتحف في ربيع عام ٢٠١٦.

جاءت نهاية هذا الجزء من القصة يوم الثلاثاء ٢٧ سبتمبر/أيلول ٢٠١٦ بافتتاح قاعة البصرة. بدت الغرفة رائعة بأرضيتها من البلاط المنقوش وجدرانها التي أصبحت الآن بنفسجية وسقفها المتقن المصنوع من الخشب المنحوت والجص المطلي والأعمدة الستة المكسوة بالحجارة المصقولة التي تحاوط القاعة. وفي عشرين صندوق زجاجي صُفّت القطع المعروضة التي ينتمي معظمها إلى الفترات الفرثية والساسانية والإسلامية، واشتملت على المعروضات من الفخار، والأواني الزجاجية، وأعمال التراكوتا، والبلاط والطوب، والزخارف المعمارية، والتوابيت، والقطع النقدية. كتب محتوى لوحات المعلومات، بالنيابة

١٦ قبل الشروع في تنفيذ العمل، تمكنت ليان بوتشر من زيارة الموقع وتقديم الملاحظات إلى زملائها في مجلس الأمناء.

عن المعهد البريطاني لدراسة العراق، الدكتور بول كولينز من متحف أشموليان. وحضر الافتتاح حوالي ثلاثمائة شخص وعدد من طواقم التلفزيون والصحافة. وألقى الكلمات كل من محافظ البصرة، وقيس رشيد، وميسون الدموجي رئيسة لجنة الثقافة والإعلام في مجلس النواب العراقي، وجون كرتيس، وقطان العبيد.

ملاحظات أخيرة

في أغسطس/آب ٢٠١٦، قدم مجلس أمناء متحف البصرة طلباً إلى صندوق الحماية الثقافية الذي تم إنشاؤه حديثاً ويديره المجلس الثقافي البريطاني ووزارة الثقافة والإعلام والرياضة، من أجل الحصول على منحة لاستكمال المتحف الجديد بالبصرة. وفي ديسمبر/كانون أول ٢٠١٦، تم إبلاغنا بالموافقة على طلب المنحة وبحصولنا على مبلغ ٦٠ ألف جنيه إسترليني. عقب هذه الأنباء السارة، تم تعيين جوان بورتر ماكأيفر كمنسقة للمشروع عن الجانب البريطاني لمساعدة مجلس الأمناء في تنفيذه. وفي أغسطس/آب ٢٠١٧، تمت الموافقة على زيادة المنحة بقيمة ٧٠,٦٠٠ جنيه إسترليني. وفي وقت كتابة هذا التقرير (ديسمبر/كانون أول ٢٠١٧)، تم طلب صناديق عرض للصالات الثلاثة المتبقية، ووقت كتابة هذه الكلمات كانت بقية أعمال إعداد الموقع جارية، والميعاد المتوقع لافتتاح المتحف هو ربيع عام ٢٠١٩.

ومن المأمول أن يصبح مجمع القصور الممتد على مساحة خمسة وثمانين هكتاراً، والذي يقع ضمنه قصر البحيرة المُسَوَّر، متنزهًا ثقافيًا. إذ تم بالفعل نقل متحف التاريخ الطبيعي التابع لجامعة البصرة من مبنى على الكورنيش إلى قصر صغير أو جناح على الطريق بين بوابة المجمع وقصر البحيرة. واقترح السيد جعفر آغا جعفر إنشاء متحف للتاريخ العراقي الحديث في قصر السراجي، والذي يمكن الوصول إليه من قصر البحيرة عبر جسر مقوَّس صغير.^{١٧} تتضمن الاقتراحات الأخرى للمجمع تخصيص مبنى لإقامة بينالي.

مراجع

J. E. Curtis, Q. H. Rashid, H. Clarke, A. A. Hamdani, E. Stone, M. Van Ess, P. Collins and M. Ali. 2008. An assessment of archaeological sites in June 2008: an Iraqi-British project. *Iraq* LXX: 215–37.

١٧ بنى جده قصر السراجي في أواخر القرن التاسع عشر.

